# مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين. وبعد:

فإن آثار الهُداة المهديين الذين رسموا الطريق عن خبرة، ودعوا إليه على بصيرة، كثيرة. ومن أَنْفَسِهَا كتاب «لطائف المنن». ألّفه الإمام الجليل ابن عطاء الله السكندرى، الذى جمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلماء الشريعة ورئاسة علوم الحقيقة وعلماء الحقيقة فكان متشرعًا متحققًا، بل رأس علماء التشريع وعلماء التحقيق.

ويقول الإمام أحمد زروق رضى الله عنه:

هو الشيخ الإمام العالم العامل العارف بالله المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسينىّ بن عطاء الله، الجذامى نسبًا، المالكى مذهبًا، الإسكندرىُّ دارًا، القاهرىّ مزارًا. توفى بالقاهرة سنة سبعمائة وتسع فى جمادى الآخرة، وكان أعجوبة زمانه فى التصوّف وغيره كما قيل:

حلف الـزمـانُ لَيـأْتِيَنَّ بمثله حَنِثَتْ يمينُـك يا زمـانُ فكفّـرِ

ويذكر الشيخ زروق من تآليفه:

«التنوير فى إسقاط التدبير» و«لطائف المنن» و«تاج العروس» و«مفتاح الفلاح» و«القول المجرد فى الاسم المفرد».

أخذ العهد على الإمام الكبير أبى العباس المرسى، الذى قال عنه القطب الشاذلى:

«إنه أعلم بطُرُق السماء منه بطرق الأرض».

وقال فيه:

هذا أبو العباس منذُ أنْ عرف الله لم يحجب عنه، ولو طلب الحجاب لم يجده!!

ويقصُّ ابن عطاء الله فى كتابه اللطيف الشائق: «لطائف المنن»، قصَّة صلته بأبى العباس فيقول:

«كنت لأمْرِه (أى لأمر الشيخ أبى العباس) من المنكرين وعليه من المعترضين، لا لشىء سمعته منه ولا لشىء صحّ نقله عنه، ولكن جرت المخاصَمة بينى وبين أصحابه فقلت فيهم قولاً عظيمًا، ثم قلت فى نفسى: دعنى أذهب أنظر هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات. لا يخفى شأنه، فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس، ومسألةِ درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به، وقربهم منه فقال:

الأول إسلام: وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام ببراسم الشريعة.

**وثانيها الإيمان:** وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية.

**وثالثها الإحسان:** وهو مقام شهود الحق تعالى فى القلب.

وإن شئت قلت: الأوّل عبادة، والثانى عبودية، والثالث عبودة.

وإن شئت قلت: الأوّل شريعة، والثانى حقيقة، والثالث تحقُّق.

فما زال يقول: وإن شئت قلت، وإن شئت قلت، إلى أن بهر عقلى وسلب لبّى، فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحر إلهى ومدد ربّانىّ: فأذهب الله ما كان عندى، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد فىَّ شيئًا يقبل الاجتماع بالأهل على عادتى، ووجدت معنىً غريبًا لا أدرى ما هو، فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء وكواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدْرته، فلمس قلبى أشياء لم أعرفها من قبل، فحملنى ذلك على العودة إليه مرةً أخرى فأتيت إليه، فاستؤذن لى عليه، فلما دخلت إليه قام قائمًا وتلقّانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلًا، واستصغرت نفسى أن أكون أهلًا لذلك، فكان أول ما قلت له: يا سيدى أنا والله أحبُّك. فقال: أحبَّك الله كما أحببتنى، ثم شكوت له ما أجده من هموم وأحزان، فقال:

أحوال العبد أربع لا خامسة لها: النعمة والبلية، والطاعة، والمعصية، فإن كنت فى النعمة فمقتضى الحق منك الشكر. وإن كنت فى البليّة فمقتضى الحق منك الصبر، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود مِنّتِه عليك، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار، فقمت مِن عنده وكأنما كانت الهموم ثوبًا نزعته، ثم سألنى بعد ذلك بمدّة، كيف حالك؟ فقلت: أفتّش عن الهمّ فما أجده، فقال:

ليلى بوجهك مشرقٌ وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سُدَف الظلا م ونحن فى ضوء النهار

الزمْ، فوالله لئن لزمت لتكوننَّ مفتيًا فى المذهبين؛ فى علوم الظاهر وحقائق الباطن.

وعن هذه الملازمة يروى ابن عطاء الله القصة التالية، قال:

خرجت يومًا من عند الفقيه مكين الدين الأسمر رضى الله عنه، وخرج معى أبو الحسن الجزيرى، وكان من أصحاب الشيخ أبى الحسن، فسلّمت عليه، فسلّم علىَّ ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفنى؟

فقال: كيف لا أعرفك؟ كنتُ يومًا جالسًا عند الشيخ أبى العباس وكنت أنت عنده، فلما نزلتَ قلت له: يا سيدى إنه يعجبنى هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم، قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن، لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعيًا يدعو إلى الله فكان كما قال الشيخ ولله الحمد.

أخذ ابن عطاء الله العهد على أبى العباس، ولازمه، وكانت بينه وبينه أمور توضّح شيئًا من صلتها وتلقى بعض الأضواء على سيرته، منها مثلًا ما يدّل على أنّ جدّ ابن عطاء الله كان فقيهًا معارضًا للنزعة الصوفية.

جاء فى لطائف المنن: وأخبرنى بعض أصحابه قال: قال الشيخ (أبو العباس) يومًا: «إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية فأعلمونى به، فلما أتيت أعلمنا الشيخ بك، فقال: تقدمْ، فتقدمت بين يديه، ثم قال:

جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذبته قريش، فقال له جبريل (عليه السلام): هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك فى قريش، فسلَّم عليه مَلَكُ الجبال، وقال: يا محمد إن شئتَ أطبقُ عليهم الأخشبين فَعَلْتُ، فقال رسول الله ﷺ:

لا ولكن أرجو أن يخرج من أصلابهم مَنْ يوحّد الله ولا يشرك به شيئًا.

فصبر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاءَ مَنْ يخرج من أصلابهم، كذلك صبرنا على جدّ هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه» ا.هـ.

ولكن الأمور، فى الاطمئنان إلى المسلك الصوفى، لم تكن تسير، فى كل ظروفها رخاء: فإن ابن عطاء الله كان طالبًا محبًّا للعلم مشغوفًا بقراءة الكتب، وبينما هو مندمج فى الجوّ الطلّابىّ إذا بالطلبة يتحدثون عن العلم الظاهر والتصوف، ويروى هو القصة كما يلى:

وكنت أنا سمعت الطلبة يقولون: من يصحب المشايخ لا يجىء منه فى العلم الظاهر شىء، فشقَّ علىَّ أن يفوتنى العلم، وشقَّ علىَّ أن تفوتنى صحبة الشيخ رضى الله عنه، فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحمًا بخلّ، فقلت فى نفسى: ليت الشيخ يطعمنى لقمةً من يده، فما استتمت الخاطر إلّا وقد دفع فى فمى لقمةً فى يده، ثم قال: نحن إذا صَحِبَنا تاجرٌ ما نقول له: اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له: اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له: اترك طلبك وتعال، ولكن نقرّ كلّ أحد فيما أقامه الله فيه. وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه. وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ، فما قال لتاجر: اترك تجارتك، ولا لذى صنعة اترك صنعتك، بل أقرَّهم على أسبابهم، وأمرهم بتقوى الله فيها.

ولكن يبدو أن ابن عطاء الله حينما اندمج فى جوّ الأستاذ ولازمه حاول محاولةً ردَّهُ الأستاذُ عنها، يقول ابن عطاء الله:

ودخلت أنا عليه يومًا وفى نفسى ترك الأسباب، والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر، قائلًا: إنَّ الوصول إلى الله لا يكون إلّا على هذه الحالة، فقال من غير أن أبدى له شيئًا:

صحبنى بقوص إنسان يقال له: ابن ناشىء وكان مدرسًا بها ونائب الحاكم، فذاق من هذا الطريق شيئًا على أيدينا. فقال: يا سيدى أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل. ثم قال: وهذا شأن الصدّيقين لا يخرجون من شىء حتى يكون الحقُّ سبحانه هو الذى يتولّى إخراجهم. فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قَلْبى وكأنما كانت ثوبًا نزعته ورضيت عن الله فيما أقامنى فيه.

ولقد قدر الإمام أبو العباس تلميذه النابه، وتبنّى قيادته إلى المكانة الجدير بها، ويشير إلى ذلك

القصتان التاليتان، يقول ابن عطاء الله:

«وكنت قلت لبعض أصحاب الشيخ: أريد لو نظر إلىَّ الشيخ بعناية، وجعلنى فى خاطره، فقال ذلك للشيخ، فلما دخلت على الشيخ رضى الله عنه قال:

لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا فى خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ فى خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنده.

ثم قال: أى شىء تريد أن تكون؟ والله ليكوننَّ لك شأن، والله ليكوننَّ لك شأن عظيم، والله ليكوننَّ لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلاّ قوله: ليكوننَّ لك شأن عظيم، فكان من فضل الله سبحانه ما لا ننكره».

ويقول: وأخبرنى سيدى جمال الدين، ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ: هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله فى الفقه، فقال الشيخ:

هم يصدرونه فى الفقه، وأنا أصدره فى التصوف. ودخلت أنا عليه فقال لى:

إذا عوفى الفقيه ناصر الدين يجلسك فى موضع جدّك، ويجلس الفقيه من ناحية، وأنا من ناحية، وتتكلم إن شاء الله فى العِلمَيْن، فكان ما أخبر به رضى الله عنه.

وابن عطاء الله هو الذى كان له الفضل الكبير فى بيان كثير مما يعرفه الآن من آثار أبى العباس المرسى.

وفى بيان الكثير أيضًا مما نعرفه عن القطب الكبير الحجّة أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه.

وابن عطاء الله هو الذى جنّد قلمه للدعوة إلى طريق الله فكتب هذه الدرر التى تركها مصابيحَ وأنجمًا تهدى السائرين إلى الله تعالى.

* * *

والكتاب الذى نقدمه الآن كتاب مبارك، إذ إنه يتحدث عن شخصيتين هما فى القمّة من السموّ الروحىّ: إنه يتحدث عن الإمام الكبير أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، وعن الإمام الكبير أبى العباس المرسى رضى الله عنه.

وما كان الوصول إلى القمّة فى السموّ الروحىّ - فى يوم من الأيّام - سهلاً ميسورًا. كلاَّ. وإنما له ثمنه الباهظ من مجاهدة النفس، ومن قيام الليل، وصيام النهار، والعمل فى كل لحظة لمرضاة الله سبحانه.

ولقد كافح كل منهما فى سبيل الله طيلة حياته.

أما أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فقد بدأ حياته بأمرين لابدّ منهما لكل من يريد سلوك طريق الله وهما:

١ - العلم.

٢ - والعبادة.

أمّا العلم فلأنه لابدّ من التأسّى برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلّا لما أفلح السالك بد .

والتأسّى برسول الله ﷺ لابدّ له من دراسة السنّة دراسةً متمعّنة.

ودراسة السيرة النبوية دراسة متأمّلة.

ورسول الله ﷺ كان شعاره، وكان طابعه، وكان أساسه، وكانت وجهته: كتابُ الله سبحانه. ومن هنا كان لابدّ للقرب من الله تعالى، من اتّخاذ القرآن شعارًا وطابعًا وأساسًا ووجهةً.

وقد درس كل ذلك أبو الحسن الشاذلى أحسن وأجمل ما تكون الدراسة فكان عالمًا قمّةً فى العلم.

وكانت له كتب مفضلة يداوم على دراستها لتلاميذه ومريديه ومن هذه الكتب:

١ - كتاب «إحياء علوم الدين» وهو كتاب ألّفه الإمام الغزالى فى فترة خلوته وفى أيام عبادته وقربه من الله تعالى. إنه ثمرة من ثمار القرب، وهو من خير ما يتّخذ الإنسانُ من الذخائر. ويقول عنه الإمام النووى:

«كاد الإحياءُ يكون قرآنًا».

وذلك أنه يستمدُّ من القرآن. والإمام النووى حجّة فى السنّة وحجّة فى الفقه وكلمته لها وزنها الكبير. كان أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقرأ هذا الكتاب ويدرسه لتلاميذه.

٢ - كتاب «قوت القلوب» لأبى طالب المكى وهو كتاب ينصّ الإمام الغزالى على أنه من الكتب التى قرأها وهو بصدد السلوك الصوفّى، ويقول عنه أبو الحسن: القوت: قوت.

ويقول عنه: القوت يفيد النور، كان أبو الحسن يقرؤه ويُدَرِّسه.

٣ - كتاب «الرسالة القُشَيرية» وهو الكتاب الذى يعتبر دستور الصوفية، وقد ألّفه الإمام القشيرى: لا لهدف المعرفة فحسب، وإنما ليكون ميزانًا للصوفية ومقياسًا لأعمالهم ويقول فى ذلك:

«[1]ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلّا أثرُهم كما قيل:

أمـا الخيـام فـإنها كخيـامهم وأرى نساءَ الحىّ غير نسائها

حصلت الفترة[2] فى هذه الطريقة. لا بل اندرست[3] الطريقة بالحقيقة. مضى الشيوخ الذين كان بهم الاقتداء، وقلّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنّتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه. واشتدّ الطمع وقوى رباطُه.

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدُّوا قلّة المبالاة بالدين أوثق ذريعة. ورفضت التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفّوا بأداء العبادات، واستهانوا

---

(١) ص ٢٧ من الرسالة القشيرية.

(٢) الفترة: التراخى والتفريط.

(٣) اندرست: زالت ومحيت.

بالصوم والصلاة، وركضوا فى ميدان الغَفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات، والارتفاق[٤] بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان.

ثم لم يرضوا بما تعاطَوْهُ من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادَّعَوْا أنّهم تحرروا عن رقّ الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق، تجرى عليهم أحكامه، وهم محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كُوشفوا بأسرار الأحدية، واختطُفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكامُ البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمديّة، والقائلُ عنهم غيرهُم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرّفوا بل صُرّفوا..

ولما طال الابتلاءُ فيما نحن فيه من الزمان بما لوّحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسانَ الإنكار، غيرةً على هذه الطريقة أن يذكر أهلُها بسوء، أو يجد مخالفٌ لثلبهم مساغًا: إذ البلوى فى هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة.

ولما كنت أؤمّل من مادة هذه الفترة أن تَنْحَسِمَ ولعلَّ الله سبحانه يجود بلطفه فى التنبيه لمن حاد عن السنّة المثلى فى تضييع آداب هذه الطريقة.

ولما أبى الوقت إلاَّ استصعابًا، وأبى أكثر أهل العصر بهذه الديار إلاَّ تماديًا فيما اعتادوه واغترارا بما ارتادوه..

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر - على هذه الجملة[٥] - بنى قواعده وعلى هذا النحو سار سلفه:

فعلّقت هذه الرسالة إليكم، أكرمكم الله. وذكرت فيها بعض سِير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقّيهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمريدى هذه الطريقة قوّة، ومنكم لى بتصحيحها شهادة، ولى فى نشر هذه الشكوى سلوة، ومن الله الكريم فضلاً ومثوبة. وأستعين بالله سبحانه فيما أذكره وأستكفيه، وأستعصمه من الخطأ فيه، وأستغفره وأستعفيه[٦]، وهو بالفضل جدير وعلى ما يشاء قدير» ا.هـ.

وهذه الرسالة كتاب موفّق كل التوفيق، قسّمه مؤلّفه إلى أربعة أقسام معرفتها ضرورية لكل سالك.

**القسم الأوّل**: قسم العقائد، ذكر فيه للمؤلف عقائد الصوفية من أقوالهم وبيّن بما لا لَبْسَ فيه أنها هى نفس عقائد أهل السنة.

**والقسم الثانى**: ذكر فيه تراجم كبيرة من أعلام التصوّف حتى يكونوا مُثلاً يحتذيها السائرون إلى الله.

**والقسم الثالث**: تحدث فيه عن مصطلحات الصوفية، وللتصوّف مصطلحاته الخاصة به كما أن لكل فنٍّ مصطلحاته. والواقع أن عدم فهم بعض الناس لمصطلحات الصوفية هو الذى يوقعهم فى

---

(٤) الانتفاع.

(٥) جملة مزاعمهم وادعاءاتهم.

(٦) أطلب العفو ردة عن الخطأ.

عدم فهم التصوُّف، ولو فهمت هذه المصطلحات من أمثال: الزهد والتوكل والفناء والحقيقة والشريعة وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.. إلخ. أقول: لو فهمت هذه المصطلحات ونحوها على حقيقتها لما كان هناك سوء فهم للتصوُّف، وهذا القسم من أهم الأقسام.

أما القسم الرابع: فإنه فى بيان المقامات التى يتدرّج الإنسان فيها من مقام روحىّ إلى مقامٍ أسمى حتى يصل إلى أسمى المقامات الروحية.

ثم يكون الحديث عن الشيخ وسماته وعن المريد وآدابه.

كان أبو الحسن يقرأ هذا الكتاب ويدرّسه.

وهذا الكتاب هو الذى كان يقرؤه مع كبار العلماء فى أثناء الليالى التى دارت فيها معركة المنصورة الشهيرة. وذلك حينما كانوا يفرغون من أمور الجيش والحرب، ويأوون إلى خيمة من خيام الجيش: يصلّون ويدعون ويبتهلون إلى الله داعين بالنصر، ثم يتحدثون فى العلم ويقرءون الرسالة القشيرية.

٤ - وكان أبو الحسن رضى الله عنه يقرأ لتلاميذه كتاب «الشفاء» للقاضى عياض فى السيرة النبوية وهو من أحسن ما كُتِبَ فيها.

٥ - وكان يدرس لمريديه كتاب «ختم الأولياء» وهو من الكتب التى أثارت ثورة فى الفكر الإسلامى وفى الجو الروحى وقد طبع فى لبنان للمرة الثانية.

٦ - أما فى التفسير فكان الإمام يدرس لمريديه كتاب «المحرر الوجيز» وهو كتابٌ أَقَرَّ بفضله، القدماءُ والمتأخرون، وقد أُعِدَّ للطبع من عدة جهات، ونرجو الله سبحانه أن يُيَسِّر طبعه.

٧ - وكان الشيخ رضى الله عنه يدرس للمتعمقين المتخصّصين كتاب «المواقف» وهو من الكتب التى تحتاج إلى استعداد خاص.

وكان يدرس غير ذلك، وما أردنا الاستقصاء وإنما أردنا أن نبيّن أن التصوّف الصادق يُعنى بالجانب العلمى عنايةً كريمة، ويعنى بصفوة من الكتب التى تسير على النسق السلفى الكريم.

ولقد سار أبو العباس على نسق أستاذه، وكانت هذه الكتب وغيرها مما يدرس لمريديه.

يقول ابن عطاء الله:

وكان كتابه فى أصول الدين: «الإرشاد».

وفى الحديث كتاب «المصابيح».

وفى الفقه كتاب «التهذيب» و «الرسالة».

وفى التفسير كتاب «ابن عطيّة».

أما فيما يتعلّقُ بالصلة التى بين أبى الحسن وأبى العباس رضى الله عنهما فتصوِّرها خير تصوير الرُّؤيا الآتية:

يقول ابن عطاء الله: أخبرنى بعض أصحابنا قال:

رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلى ينزل من السماء والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلمَّا رآه الشيخ أبو العباس ثبّت رجليه فى الأرض وتهيّأ لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ودخل من رأسه حتى غاب فيه.. واستيقظت.

فى هذه الرؤيا أمور:

١ - أبو الحسن ينزل من السماء.

٢ - عليه ثياب بيض.

٣ - أبو العباس يتهيّأ لاستقباله، ويثبّت رجليه فى الأرض.

٤ - يدخل أبو الحسن من رأسه ويغيب فيه.

ومعنى الرؤيا أن أبا الحسن وأبا العباس امتزجا حتى أصبحا كائنًا واحدًا أى أن أبا العباس استمرار لأبى الحسن.

وهذه رؤيا معبّرة كل التعبير عن الواقع. وكل ما يقال عن أبى الحسن من آراء يمكنك أن تقول فى يقين: إن أبا العباس لا يخالفه والعكس صادق.

عن هذين الإمامين كان كتاب لطائف المنن.

* * *

وعهدى بكتاب «لطائف المنن» عهد قديم: فقد قرأته قراءةً متأنية حينما شرعت فى الإعداد للكتابة عن الإمام أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، ثم قرأته مرةً ثانية حينما شرعت فى الإعداد للكتابة عن الإمام أبى العباس المرسى، رضى الله عنه ورجعت إليه أكثر من مرةً بعد ذلك لظروف ومناسبات عدّة منها مثلاً: حينما كتبت كلمات عن الإمام المؤلّف للكتاب: ابن عطاء الله السكندرى (رضى الله عنه) عند نشر شرح الحكم للإمام ابن عباد، وعند نشر شرح الحكم للإمام أحمد زروق. وفى كل مرّة قرأته أو رجعت إليه كنت أتمنى لو خرج هذا الكتاب إلى الناس فى طبعة ميسرة: تحقيقًا وتعليقًا.

والأمور مرهونة بأوقاتها ﴿وما تشاءون إلّا أن يَشَاءَ الله﴾.

وتمضى السنون والكتاب دائمًا فى متناول يدى أقلّب صفحاته الفينة بعد الفينة، ثم أضعه فى مكانه حتى شاء الله سبحانه أن يكون ظهور الكتاب عند افتتاح مسجد ابن عطاء الله السكندرى.

لقد كان ضريح ابن عطاء الله السكندرى على صورة لا تتناسب مع مكانته، وكان الزائر له لا يكاد يهتدى إلى مكانه، واستمرّ ذلك قرونًا إلى أن وجّه الله سبحانه الرجل الصالح عبد الحليم مجاهد - الذى يحيط به الخير أينما سار، ويفيض عنه سهلاً ميسرًا - إلى بناء مسجد يتناسب ومكانة ابن عطاء الله السكندرى، وبنى المسجد مُباركًا مشرقًا، وأثلج ذلك صدور الصالحين عمومًا والشاذلية

خصوصًا، فجزى الله الأخ عبد الحليم مجاهد خير الجزاء، وأثابه على ما قدَّم أجزل الثواب، ووفقه الله دائمًا لصالح الأعمال.

* * *

وإننا حين نقدم هذا الكتاب فإنما نقدم كتابًا من النوع النفيس الذى يقرؤه القارىء فينعم بأسلوب جميل، ويستفيد علمًا نافعًا، وهكذا كُتب ابن عطاء الله السكندرى: إنها فى أساليبها تتسم بالفصاحة، وفى معانيها تتسم بالنفاسة، وهى بأسلوبها ومعانيها تنبثق عنها روحانيَّة هى سمة مؤلَّفات أولياء الله، وإذا كان أولياء الله هم الذين إذا رُؤُوا ذكر الله: فإن مؤلفاتهم حينما تقرأ فإنها تهدى إلى الله وتقود إليه سبحانه، ولقد قال أبو الحسن الشاذلى رضوان الله عليه: كتاب الإحياء يفيد العلم، وكتاب قوت القلوب يفيد النور، وكلاهما يفيدان العلم والنور، وكذلك الأمر فى كتب ابن عطاء الله: إنها تفيد العلم والنور، وتفيد لذة تذوُّق الأسلوب الجميل. وإذا كان أسلوب ابن عطاء الله قد بلغ القمة فى كتابه الحِكَم حتى ليقول الشيخ محمد عبده:

«كاد كتاب الحكم يكون قرآنًا».

فإن أسلوبه فى بقية كتبه هو من الأساليب الممتازة فى البلاغة: كلامه جواهر، وجواهره لآلئ ولآلئه ماس، وماسه من النوع النادر.

ولقد بلغ ابن عطاء الله القمة: أسلوبًا ومعنًى فى مناجاته التى يقرؤها الصالحون قبيل الفجر فيجدون ثمرتها إشراقًا فى صدورهم ونورًا فى قلوبهم.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الكتابة عن ابن عطاء الله أن نتوّج كلمتنا عنه بهذه المناجاة الممتعة الرائعة:

# مناجـاة

إلٰهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرًا فى فقرى؟

إلٰهى أنا الجهول فى علمى فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى؟

إلٰهى إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك: منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك فى بلاء.

إلٰهى مِنى ما يليق بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك.

إلٰهى وصفت نفسك اللطف والرأفة بى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منها بعد وجود ضعفى؟

إلٰهى إن ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنّة علىّ، وإن ظهرت المساوئ منى فبعدلك ولك الحجّة علىّ.

إلٰهى كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت بى؟ وكيف أضام وأنت النصيرُ لى؟ أم كيف أخيب وأنتَ الحفِيُّ بى؟ ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محالٌ أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تخفى عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك بر ز إليك؟ أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك؟

إلٰهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى؟

إلٰهى ما أقربك منّى وما أبعدنى عنك؟

إلٰهى ما أرأفك بى فما الذى يحجبنى عنك؟

إلٰهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرّف إلىّ فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء.

إلٰهى كلَّما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك، وكلما أيأستنى أوصافى أطمعتنى مِنَنُك.

إلٰهى من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساوئه مساوئ؟ ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى؟

إلٰهى حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذى مقال مقالاً ولا لذى حال حالاً.

إلٰهى كم من طاعة بَنَيْتَها وحالة شيّدتُها هدم اعتمادى عليها عدلُك، بل أقالنى منها فضلك.

إلٰهى إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة منى فعلاً جزمًا فقد دامت محبةً وعزمًا.

إلٰهى كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الآمر.

إلٰهى تردّدى إليك فى الآثار يوجب بعد المزار فاجمعنى عليك بخدمة توصلنى إليك.

إلٰهى كيف يُسْتَدَلُّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك

حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصّل إليك.

إلهى عَمِيت عينٌ لا تراك عليها قريبًا رقيبًا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيبًا؟

إلهى أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعنى إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبْصَار: حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السّر عن النظر إليها ومرفوع الهمّة عن الاعتماد عليها، إنك على كل شىء قدير.

إلهى هذا ذلّى ظاهر بين يديك، وهذا حالى لا يخفى عليك، منك أطْلُب الوصول إليك؛ وبك أستدلّ عليك؛ فاهدنى بنورك إليك، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك.

إلهى علمنى من علمك المخزون وصُنّى بسر اسمك المصون.

إلهى حقّقنى بحقائق أهل القرب، واسلك بى مسالك أهل الجذب.

إلهى اغننى بتدبيرك عن تدبيرى وباختيارك لى عن اختيارى، وأوقفنى على مراكز اضطرارى.

إلهى أخرجنى من ذلّ نفسى، وطهّرنى من شكّى وشركى قبل حلول رمسى، بك أستنصر.. فانصرنى، وعليك أتوكل فلا تكلنى، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى، وببابك أقف فلا تطردنى، وإيّاك أسأل فلا تخيبّنى، وفى فضلك أرغب فلا تحرمنى.

إلهى تقدّس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة منى؟ أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنيًّا عنّى؟

إلهى إن القضاء والقدر غلبنى، وإن الهوى بوثاق الشهوة أسَرنى، فكن أنت النصير لى حتى تنصرنى فى نفسى وتنصر بى، وأغننى بجودك حتى أستغنى بك عن طلبى، أنت الذى أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى غيرك أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذى هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، ماذا وَجَدَ من فقدك، وما الذى فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلًا، ولقد خسر من بغى عنك حِوَلًا.

إلهى كيف يُرْجَى سِواك وأنت الذى ما قطعت الإحسان؟ وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدّلت عادة الامتنان؟ يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، ويامن ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزّين، أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين وأنت الجواد بالعطايا من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثمّ أنت لِمَا وهبتنا من المستقرضين.

إلهى اطلبنى برحمتك حتى أصل إليك، واجذبنى بمنّتك حتى أقبل عليك.

إلهى إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك.

إلهى قد دفعتنى العوالم إليك وقد أوقفنى علمى بكرمك عليك.

إلهى كيف أخيب وأنت أملى؟ أم كيف أهانُ وعليك متّكلى؟

إلهى كيف أستعزّ وفى الذلّة أركزتنى؟ أم كيف لا أستعز وإليك نسبتى؟

إلهى كيف لا أفتقر وأنت الذى فى الفقر أقمتنى؟ أم كيف أفتقر وأنت الذى بجوُدِك أَغْنَيتَنى؟ أنت الذى لا إله غيرك، تعرفتَ لكل شىء فما جهلك شىء، وتعرفت إلىَّ فى كل شىء فرأيتُك ظاهرًا فى كل شىء، فأنت الظاهر لكل شىء، يامن استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيبًا فى رحمانيته كما صارت العوالم غيبًا فى عرشه، محقْتَ الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار، يامن احتجب فى سرادقات عزّه عن أن تدركه الأبصار، يامَن تجلَّى بكمال بهائه فتحققت عظمتَهُ الأسرارُ: كيف تخفى وأنت الظاهر؟ أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟ (ا.هـ.).

وبعد: فلقد لازم ابن عطاء الله أستاذه أبا العباس رضى الله عنهما، ثم كان من بعده شيخ الطريقة الشاذلية إلى أن توفى فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٩.

وأما بعد: فالله أرجو أن يهدى لهذا الكتاب وأن يهدىَ به إنه سميع قريب مجيب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

# كِتَاب لطائِف المنن

في مناقب علم المهتدين، وقدوة السالكين، سيدى أبى العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى وشيخه قطب الأقطاب، ودستور عوارف المعارف بلا ارتياب سيدى أبى الحسن الشاذلى.

## تأليف

شيخ الحقيقة، وإمام الطريقة، الشيخ الإمام تاج الدين أبى الفضل أحمد ابن الشيخ الهمام فخر الدين أبى بكر محمد ابن الشيخ الإمام العلامة رشيد الدين أبى محمد عبد الكريم بن عطاء الله رضى الله عنهم أجمعين، ونفعنا بهم آمين.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى فتح لأوليائه[1] باب محبته، وأنشط نفوسهم من عقال القطيعة[2]، فقاموا

(١) إن من الأهمية بمكان - فى ابتداء هذا الكتاب المبارك - أن نتحدث عن الولاية، وذلك أن المؤلف رضى الله عنه يتحدث عن الولاية نظريًا بكلام غاية فى النفاسة، ويذكر كرامات وقعت بالفعل لكثير من الأولياء.
وليس لأحد أن يبتدع تعريفًا للولاية بعد تحديد الله سبحانه وتعالى لها، إنه سبحانه وتعالى يقول عن الأولياء، إنهم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.
ولقد أبان الله سبحانه وتعالى رعايته لهم، وعنايته بهم، فقال سبحانه:
﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.
وزاد سبحانه وتعالى تفضّلًا بالنسبة لهم فقال: ﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾.
ثم أكد سبحانه ذلك بقوله تعالى: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾!
ثم بين نفاسة الثمار التى تجتنى من الولاية فقال: ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ (يونس: الآيات ٦٢-٦٤).
وإن كل حديث عن الولاية إنما هو تفسير لهذه الآيات الكريمة، ومن ذلك الحديث القدسى الذى رواه الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى قال:
«من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنّه» ومعنى آذنته بالحرب: (أعلمته بأنى محارب له) ومن ذلك ما يقوله صاحب كتاب: (أنس الفقير) - ننقله هنا: لأنه يعبر تعبيرًا كاملًا عن وجهة نظرنا فى هذا الموضوع - يقول: (فأما صفة الولى، فقد دل - رسول الله ﷺ - على صفة الأولياء فقال:
«الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل» (سنن ابن ماجه والحلية ٦,١).
وفى هذا الحديث الشريف من الدلالة عليهم كفاية تامة، فأولياء الله تعالى: «الذين إذا رآهم المؤمن عظّم ربه، وذكر ذنبه».
ويقول:
«واعلم أن من امتثل أوامر الله تعالى، واجتنب نواهيه، ورزق الخوف من الله تعالى، لا من خلقه، واجتهد فى طاعته - جل وعلا - وبحث عن أمر كسبه ووقف عندما حدّ له، ورجع عن كلّ مالا يعلم حكمه: فهو الصالح.
وأعلى درجة من هذا: حصول الورع التام، وترك الطمع، وبغض الدنيا ومن تمسّك بها، والفرار من دواعيها، ومن أهلها، والقناعة باليسير منها. ودرجات الصالحين تختلف بالترقى فى ذلك على حسب العناية من الله تعالى..
واعلم أن الكرامة ليست من شرط حصول الولاية، فقد تحصل الكرامة، لكن إن وقعت لولىّ، فهى دالة على صدق عبادته، وعلوّ مكانته، بشرط اتّباعه لحقيقة ما أمر به النبى عليه السلام، وإلّا فهى خذلان من الشيطان. ومن الصالحين من يعلم بولايته، ويعلم غيره بها، ومنهم من لا يعلم بنفسه، ولا يعلم به، ومنهم من يعلم به، ولا يعلم هو بنفسه، والعالمون بها: منهم من يكتمها جهد استطاعته، ومنهم من يظهرها ويصرح بها» اهـ.
«لا يستدل على الولىّ بالكرامة لاحتمال أن تكون من الشيطان، وإنما يستدلّ على صدق الكرامة بصحة الولاية».
وكرامات الصحابة والتابعين لا تكاد تحصى:
ففى البخارى أن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة. فإذا النور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرّق النور معهما!
وفى البخارى - أيضًا -: أن عمران بن حصين كانت تكلّمه الملائكة.
ونادى عمر بن الخطاب: «ياسارية الجبل!» يحضّه على الرجوع إلى الجبل حذرًا من العدو، وبينهما مسيرة أيام. فرآه وسمعه سارية. فرجع إلى الجبل وسلم من العدو».
(٢) أى حلّ نفوسهم وفكّها من أسر المعاصى التى تقطع الصلة بينهم وبينه.

بوجوب خدمته، وأمدّ عقولهم بنوره، فعاينت عجائب قدرته، وحرس قلوبهم من الأغيار[٣]، ومحا منها صور الآثار، حتى ظفِرت بمعرفته!

كشف لأرواحهم عن قدس كماله، ونعوت جلاله، فهم سبايا حضرته[٤].

متّع أسرارهم بقربه، بخطفات جذبه، فتحققوا بشهود أحديّته.

أخذهم منهم، وأفناهم عنهم، فغرقوا في بحر هويته.

فرّق جيوش التفرقة بكتائب الجمع[٥] لأهل خصوصيته، وحَمى حِمى الأسرار بمدد الأنوار أن يكون مظهرًا لغير فرديته!

أطلع كواكب العلوم في سماء الفهوم تهدى السائرين لحضرة ربوبيته، وأضاء قمر التوحيد في بيداء التفريد، فانطوت الكائنات في وجود أزليته، وما كانت معه في أزله[٦] حتى تكون معه في أبديته، بل هو الأوّل والآخر لا بالإضافة لبريته، والظاهر والباطن كذلك، وما الكون حتى يقاس بقدوسيته؟!

أحمده والحمد واجب لصفات جلاله وعظمته.

وأشكره، والشكر مستحق له بإسباغ نعمته.

وأرجوه، وكيف لا أرجوه، وهو الذي وسع كل شيء برحمته[٧]، وغمر العباد في الغيب والشهادة بطوائل منّته.

وأعترف له بالتقصير عن القيام بحقوق أحدّيته.

واعلم أنه لا يحاط بذاته وصفته.

ليس للعبد منه إلّا ما منّ به عليه، ولا يضاف له من المحاسن إلّا ما أضافه إليه[٨]، ولا ينتصر

---

(٣) الأغيار: - أو ما يعبّر عنه - بـ(السوى) هو: كل ما سوى الله سبحانه وتعالى.

وأولياء الله سبحانه وتعالى لا يستعبد قلوبهم صنم من الأصنام الكثيرة التي تتمثل في شهوة أو جاه أو ثراء، وقلوبهم ملأى بالله سبحانه.

(٤) سبايا: أسرى.

(٥) مما يجرى في كلام الصوفية كثيرًا: «الجمع والتفرقة»، قال الأستاذ أبو علي الدقاق: الفرق ما نسب إليك، والجمع ما سلب عنك. ومعناه: أن ما يكون كسبًا للعبد من إقامة العبودية، وما يليق بأحوال البشرية، فهو الفرق.

وما يكون من قبل الحق: من إبداء معان. وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق؛ لأنه من شهود الأحوال. فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله عن طاعاته ومخالفاته، فهو عبد بوصف التفرقة، ومن أشهده الحق - سبحانه - ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه. فهو عبد بشاهد الجمع.

(٦) وقد روى البخاري مقدم أهل اليمن لرسول الله ﷺ بعد قبولهم الإسلام وقولهم له ﷺ: جئنا نسألك عن - أوّل - هذا الأمر ما كان. فقال ﷺ: كان الله ولم يكن شيء غيره - وفي رواية ولم يكن شيء قبله - وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض - وذكر في فتح الباري أن بعض الروايات فيها: كان الله ولا شيء معه.. ويستفاد من هذه الروايات وغيرها: أن الله سبحانه: كان. ولا عرش ولا كرسي، ولا ماء، ولا كون - وكل ما يقال عن قدم العرش أو الكرسي فهو من الأباطيل.

(٧) قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾.

(٨) إن الإنسان في كل ما يتعلق بالله سبحانه، ذاتًا وصفات - يجب عليه أن يلتزم التزامًا كاملًا بما ورد في الآثار الصحيحة، =

فى المصادر والموارد إلّا بالتوكّل عليه.

العزيز القادر، الحكيم القاهر، الرقيب على فعل كل فاعل، ونظر كل ناظر، لا يخفى عليه ما فى الضمائر، ولا يعزب عن علمه مستكنّات السرائر! أظهر فى ملكه حكمته، وفى مكوته قدرته، وتعرّف لكل شىء، فلا شىء يجحد ربوبيته، ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾(٩).

وأشهد أن لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، وكل شىء يشهد بأحدّيته فى ألوهّيته.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المصطفى من خليقته المشهود له فى الغيب والشهادة بكمال خصوصيته، القائم لمولاه بكمال الوفاء فى عبوديته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، صلاةً تدوم بدوام أبديته وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإنّى قصدت فى هذا الكتاب أن أذكر جملًا من فضائل سيدنا ومولانا الإمام: قطب العارفين، علَم المهتدين، حجّة الصوفية، مرشد السالكين منقذ الهالكين، الجامع بين علم الأسماء والحروف والدوائر، المتكلم بنور بصيرته الكاملة على السرائر، كهف الموقنين، ونخبة الواصلين، مظهر شموس المعارف بعد غروبها، ومبدى أسرار اللطائف بعد عزوبها(١٠) الواصل إلى الله، والموصل إليه:

«شهاب الدين: أبى العباس بن عمر الأنصارى المرسى».

أسكنه الله حظيرة قدسه، ومتّعه - على ممر الساعات - بموارد أنسه، وأذكر شيخه الذى أخذ عنه، ومنازلاته(١١) التى نقلت عنه، أو سمعها منه، وكراماته، وعلومه وأسراره، ومعاملاته مع الله سبحانه وتعالى، وما قاله من تفسير آية من كتاب الله عز وجل، أو إظهار لمعنى خبر نقل عن رسول الله ﷺ، أو كلام على حقيقة - نقلت عن أحد من أهل الطريق - أشكل معناها، ولم يفهم مغزاها، وما نقله عن شيخه الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، وما قاله هو من الشعر، أو قيل بحضرته، أو قيل فيه مما يتضمن ذكر الطريق وأهلها؛ وأنقل ما يمكن إثباته من أخباره كثيرها وقليلها.

وكان أصحاب الشيخ الإمام القطب أبى الحسن - قدّس الله روحه - قد أثبتوا جملًا من كلامه، وإن كان هو - رضى الله عنه - لم يضع كتابًا؛ وقد بلغنى عنه أنه قيل له:

يا سيدى لم لا تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم؟

---

- فقد بلغ رسول الله ﷺ كل ما يحتاج الإنسان إليه فى أمر العقيدة، ولم يختلف المسلمون إلّا عندما تعدّوا النصوص، وأخذوا يقولون بآرائهم، أو أخذوا يضيفون إلى النصوص من عند أنفسهم، وكل ما يتصل بالذات أو الصفات يجب الإيمان به، على مراد الله فيه، فمثلًا حينما يقول الله سبحانه:

﴿يد الله فوق أيديهم﴾.

نقول فيها: إننا نؤمن بها على مراد الله سبحانه - وقوله تعالى:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

نقول فيها: إننا نؤمن بها على مراد الله فيها، وكل ما يتأتى من تأويل أو خروج عن هذا الموقف فإنه ليس سبيل أسلافنا - رضوان الله عليهم - وكلام المؤلف فى ذلك من أحكم ما قيل.

(٩) الأعراف: ٥٤. (١٠) ذهابها. (١١) جهاده فى العبادة.

فقال رضى الله عنه: كتبى أصحابى!

كذلك شيخنا أبو العباس - رضى الله عنه - لم يضع فى هذا الشأن كتابًا. والسبب فى ذلك: أن علوم هذه الطائفة علوم التحقيق، وهى لا تتحملها عقول الخلق.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس - رضى الله عنه - يقول:

جميع ما فى كتب القوم عبرات دموع من سواحل من بحر التحقيق!

ولا أعلم أن أحدًا من أصحاب شيخنا أبى العباس رضى الله عنه تصدّى إلى جمع كلامه، وذكر مناقبه وأسرار علومه وغرائبه، فحدانى ذلك إلى وضع هذا الكتاب بعد أن استخرت الله تعالى وطلبت منه المعونة وهو خير معين، وسألته أن يهدينى إلى الصراط المستبين..

وقسّمته إلى مقدمة، وعشرة أبواب، وخاتمة:

أما المقدمة فتشتمل على إقامة الدليل على أن نبينا محمدًا ﷺ أفضل بنى آدم، بل أفضل البشر، بل أفضل الخلق كافة(١٢)..

وأفردت كل مقام بإقامة الدليل عليه من كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ، وبينت أن مدد الأولياء من الحقيقة المحمدية(١٣)، وأن الأولياء إنما هم مظاهر أنوار النبوة(١٤) ومطالع شوارقها..

---

(١٢) يقول الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

والتقوى درجات. وأساسها اتقاء الشرك. ثم اتقاء المعاصى. ثم اتقاء الغفلان ثم اتقاء الخطرات.

والدرجة العليا هى «أن يسلم لله قلبك» «وأن يسلم لله قلبك» فى كمالها وتمامها لم تكن إلاّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وصورتها الصافية الصادقة هى ما عبرّ الله سبحانه وتعالى عنها بقوله لرسوله ﷺ:

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾.

وهذه الدرجة لم يبلغها نبى مرسل فضلاً عن عامة البشر، إنها خاصة برسول الله ﷺ، ومن هنا كان أفضل الخلق على الإطلاق.

وكان العالم ناقصًا قبل وجوده ﷺ. فلما وجد كمل العالم.. إنه ﷺ (اللبنة) التى كان قبلى الملك فى حاجة إليها ليكمل، قال ﷺ فى الحديث الصحيح:

«مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

أخرجه: البخارى ومسلم والإمام أحمد والترمذى - مع اختلاف يسير فى الألفاظ.

(١٣) يتحدث كثير من الناس عن (الحقيقة المحمدية)؛ ويتساءل كثير من الناس عن هذه الحقيقة: ماهى؟ وينكر بعض الناس هذه الكلمة، أو على الأقل يجادل فيها ويارى؟

والواقع أن الأمر أيسر من أن يثير نقاشًا، وأوضح من أن يكون مصدر مماراة أو إنكار.

فالحقيقة المحمدية هى: النبوة، ومحمد ﷺ: حقيقته نبوته، وهذه النبوة فى علم الله منذ الأزل، قدرها الله سبحانه وتعالى بحكمته قبل خلق الكون، وقبل وجود العالم.

وعلى هذا الأساس يمكنك أن تقول:

إن الحقيقة المحمدية أزلية أو قديمة، وتقصد أنها كذلك فى علم الله، ويمكنك أن تقول: إن الحقيقة المحمدية حادثة، وذلك يوم بعثته أى سنة ثلاث عشرة قبل الهجرة عندما أشرق فجر الهداية الخاتمة وبدأ النور يشرق مستفتحًا بـ ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم﴾ والأمر على هذ الوضع لا يثير مماراة ولا إنكاراً- والله أعلم.

(١٤) إن تفسيرنا السابق للحقيقة المحمدية يتناسق- كما يرى القارئ- مع كلام المؤلف عن الأولياء.

وأعلمت أن أنوار الولاية دائمة الثبوت للزوم دوام أنوار النبوة. وذكرت الفرق بين الرسالة والنبوة والولاية(١٥)..

وبينت من هو الأولى بالميراث فى قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»..

وبينت ماهو العلم الذى أثنى الله عليه، ومن هم العلماء الذين هم أولى بالزلفى لديه..

وبينت أن الأولياء الظاهرين فى أوقات الظلمة أولى بأن يكثر الله أنوارهم، ويجزل لهم من وجود اليقين ما يوجب انتصارهم، ليدافعوا ظلمة الأوقات، وليهزموا بعساكر أنوارهم جيوش الغفلات.

وذكرت أقسام الولاية، غزارة قدر الولى، وفخامة رتبته؛ وشفوف(١٦) منزلته، مما تضمنه الكتاب العزيز والأحاديث النبوية، ليكون ذلك توطئة لك بتصديق مايرد عليه من أخبار أوليائه، وكرامات أصفيائه.

وأما الأبواب:

فالباب الأول: فى التعريف بشيخه الذى أخذ عنه هذا الشأن، وشهادة من عاصره من العلماء الأعيان: أنه قطب الزمان، والحامل فى وقته لواء أهل العيان.

الباب الثانى: فى شهادة الشيخ له أنه الوارث المقام، والحائز قصب السبق بالتمام، وإخباره هو

---

(١٥) حيثما يقطع الإنسان الطريق يصل إلى الولاية.

والولى إما أن يكث وليا فقط، فتكون معرفته خاصة به، أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الآخرين فيكون نبيا، أو يكون رسولاً.

والرسول نبى، ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية، أما رسالة النبى فإنها محددة الأهداف محدودة المكان.

إن الرسول مظهر الصفة الإلهية «الرحمن» فى جميع أنحاء العالمين، إنه: (رحمة للعالمين) فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة.

ولاشك أن النبوة أسمى من الولاية، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولى (القرب) من الله فى حين أن النبى متجه بطبيعة رسالته إلى الخلق، ولكن ذلك خطأ محض، فإن النبوة تتضمن الولاية، فهى متضمنة لمقام القرب، ثم إنها أكثر من الولاية، وعلى ذلك فإن حالة الولى (ناقصة) بالنسبة لحالة النبى، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها فى العموم، وهذا العموم يصل إلى أعلى درجات ازدهاره فى الرسالة: إذ هى عالمية والرسول- لاغيره- هو حقيقة (الإنسان العالمى).

وللرسول - كما للنبى - اتجاهان:

١ - اتجاه داخلى: إنه الاتجاه نحو الحق.

٢ - اتجاه خارجى: إنه الاتجاه نحو الخلق.

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبى المحدودة، ودرجة النبى المحدودة أسمى من درجة الولى الخاصة، ومقام الجميع القرب.

(١٦) نعود فنقول: إن الأولياء هم:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

والذى يعاديهم إنما يعادى الإيمان والتقوى، ولا يكون هذا إلا فيمن تمحض للشر والعياذ بالله، وعلى هذا الأساس يفهم كلام المؤلف رضى الله عنه سواء فى ذلك الكلام فى هذا الموضع أو الكلام المشابه فيما يأتى فى الكتاب..

عن نفسه بما من عليه من النعم الجسام، وشهادة الأولياء له بأنه: بلغ من الوصول إلى الله لأفضل مرام.

**الباب الثالث:** فى مجرباته ومنازلاته، وما اتفق لأصحابه معه ومكاشفاته.

**الباب الرابع:** فى علمه وزهده، وورعه ورفع همته، حلمه وصبره وسداد طريقته.

**الباب الخامس:** فى آيات من كتاب الله تعالى تكلم على تبيين معناها، وإظهار فحواها.

**الباب السادس:** فيما فسره من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية.

**الباب السابع:** فى تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله لذلك على أجمل الطرائق..

**الباب الثامن:** فى كلامه فى الحقائق والمقامات، وكشفه فيها عن الأمور المعضلات..

**الباب التاسع:** فيما قاله من الشعر أو قيل بحضرته أو قيل فيه مما يتضمن ذكر خصوصيته.

**الباب العاشر:** فى ذكره ودعائه عقب كلامه، وحزبه الذى رتبه للآخذين فى علومه وأفهامه، ولوازم ذلك من ذكر شيخه أبى الحسن وحزبه، ليتم العقد بنظامه..

**وأما الخاتمة:** ففى اتصال نسبتنا إليه.. ووصاياه نثرا ونظما تُنْهض إلى الله وتجمع عليه، وهى آخر الكتاب..

وليس كل شىء سمعته من الشيخ رضى الله عنه استحضرته وقت وضعى لهذا الكتاب، ولا كل شىء استحضرته يمكن إثباته، وقصدت بذلك أن تنتفع به هذه الطائفة[١٧] خصوصًا وغيرهم عمومًا، ليؤمن بأحوال هذه الطائفة من قسم الله له نصيبًا من المنة، وجعل فى قلبه نورا من الهداية، وليرجع المكذب إلى الاعتراف والمكابر إلى وجود الإنصاف، ولتستبين لمن أراد الله به الهدى المحجة؛ وتقوم على من لم تنصره عناية الله الحجة؛ فيكون للمصدق بتصديقه لهذه الطائفة نصيب من الولاية؛ ودنو من العناية..

وقد قال الجنيد[١٨] رضى الله عنه: التصديق بعلمنا هذا ولاية؛ وإذا فاتتك المنة فى نفسك فلا

---

(١٧) الصوفية على وجه العموم، وليس مقصوده الشاذلية فحسب.

(١٨) سيد هذه الطائفة وإمامهم: أصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له «القواريرى» وكان فقيها على مذهب أبى ثور، وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، مات سنة سبع وتسعين ومائتين (٢٩٧ هـ) ببغداد.

قال الرودبارى: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندى عظيمة، والذىْ يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها.

وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق: الا من اقتفى أثر الرسول ﷺ. =

تفتك أن تصدق بها فى غيرك؛ ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾[١٩] وقد قال بعض العارفين: التصديق بالفتح لا يكون إلا بفتح.

مصداق ما قال هذا العارف قول الله تعالى:

﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾[٢٠].

وقال سبحانه: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[٢١].

وقال سبحانه: ﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقَى السمع وهو شهيد﴾[٢٢].

وقال: ﴿إنما يتذكَّر أُولو الألباب﴾[٢٣].

وإذا أراد الله خيرًا جعله من المصدّقين لأوليائه فيما جاءوا به؛ وإن قصر عقله عن إدراك ذلك؛ فمن أين يجب أن لا يهب الله لأوليائه إلّا ما تسعه عقول العباد؛ وقد قالوا: يخشى على المكذب لهم سوء الخاتمة[٢٤].

وقد قال أبو تراب النخشبى[٢٥]: من لم يصدّق بهذه الكرامات فقد كفر[٢٦]؛ أى قد غطِّى عليه الأمر؛ وستر عنه شهود قدرة الله تعالى؛ جعلنا الله وإيّاكم من المعترفين بفضله فى عباده؛ ومن المصدقين بآثار عنايته فى أهل وداده؛ إنه ولىّ ذلك والقادر عليه..

ولم أُخل الكتاب من الكلام على الشىء المشكل وحل الأمر المعضل؛ والتنبيه على أمور جليلة؛ وإظهارُ أسرار أبصار من لم يؤمن بهذه الطائفة عنها كليلة..

---

= وقال: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة..

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ وبلغ من تقديره أن كان الكتبة (الأدباء) يحضرون مجلسه لألفاظه.

والفقهاء لتقريره.

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه.

والمتكلمون لتحقيقه.

والصوفية لإشارته وحقائقه.

(١٩) البقرة: ٢٦٥.

(٢٠) النور: ٤٠.

(٢١) الذاريات ٥٥.

(٢٢) ق: ٣٧.

(٢٣) الزمر: ٩.

(٢٤) إن المكذّب للأولياء مكذّبٌ للإيمان والتقوى اللذيْن هما ماهيّة الولىّ، وليرجع القارىء إلى ما كتبناه فى مقدمة الكتاب.

(٢٥) هو أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى، من أجلّ مشايخ خراسان، يتحدث عنه ابن الجلاء عن خبرة ومشاهدة ومعرفة فيقول: «لقيت ستمائة شيخ، ما لقيت فيهم مثل أربعة: أولهم أبو تراب النخشبى، ويقول صاحب الكواكب الدرية: كان شيخ عصره بالاتفاق، جامعًا بين العلم والدين والزهد والتصوّف بلا شقاق، متقشفًا متوكّلًا، متخشّعًا متبتلا، قد أضاء فى سماء المعانى بدرُه، واشتهر فى سماء المعانى حسنه وذكره.

(٢٦) من معانى الكفر: الستر والتغطية، وكل شىء غطّى شيئًا فقد «كفره»، ويسمى الزارع كافرًا لأنه يغطّى البذر بالتراب، ويسمّى الزراع كفارًا لذلك - وهذا هو المعنى الذى أراده أبو تراب، ومن معانى الكفر بطبيعة الحال: أنه ضدّ الإيمان، وليس هذا هو المعنى المراد فى هذه الكلمة.

فالله سبحانه وتعالى يجعل ذلك لوجهه خالصًا؛ ومن أوحال القطيعة مخلِّصًا؛ وأن يمنّ علينا بالصدق فى الأقوال والأفعال والأحوال؛ وأن يجعلنا من العارفين به فى الحال والمآل؛ وأن يتفضّل علينا بالفهم عنه؛ وحسن الاستماع منه؛ إنه الإله القدير؛ وبالإجابة جدير..

وسمّيته: «لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس وشيخه أبى الحسن».

وهذا أوان ابتدائى بما قصدت؛ وإظهار ما أردت؛ وبالله تعالى أستعين وعليه أتوكل؛ وإليه بجاه محمد سيّد المرسلين ﷺ أتوسّل؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أما المقدمة:

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى لما أراد إتمام نعمته؛ وإفاضة فيض رحمته؛ واقتضى فضله العظيم أن يمنّ على العباد بوجود معرفته؛ وعلِمَ سبحانه عجزَ عقول عموم العباد عن التلقّى من ربوبيته؛ جعل الأنبياء والرسل لهم الاستعداد التام لقبول ما يرد من ألوهيته؛ يتلقّون منه بما أودع فيهم من سرّ خصوصيته؛ ويُلَقّون عنه: جمعًا للعباد على أحديته؛ فهم برازخ الأنوار؛ ومعادن الأسرار؛ رحمة مهداة؛ ومنّة مصفاة؛ حرس أسرارهم فى أزله من رقّ الأغيار[٢٧]؛ وصانهم بوجود عنايته من الركون إلى الآثار، لا يحبوّن إلاّ إيّاه، ولا يعبدون سواه، يلقى الروح من أمره عليهم، ويواصل الإمداد بالتأييد إليهم، ومازال فلك النبوّة والرسالة دائرًا إلى أن عاد الأمر من حيث ابتدى، وختم بمن له كمال الاصطفاء، وهو نبينا محمد ﷺ السيد الكامل، الفاتح الخاتم، نور الأنوار، وسر الأسرار، والمبجّل فى هذه الدار وفى تلك الدار، أعلى المخلوقات منارًا، وأتمهم فخارًا، دلّ على ذلك الكتاب المبين، قال الله تعالى:

﴿وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالمين﴾[٢٨].

ومن رحم به غيره فهو أفضل من غيره، والعالم كل موجود سوى الله تعالى.

وأما تفضيله ﷺ على بنى آدم خصوصًا فمن قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[٢٩].

وأما تفضيله على آدم فمن قوله ﷺ:

«كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين»[٣٠].

ومن قوله:

«آدم فمن دونه من الأنبياء يوم القيامة تحت لوائى. وأنا أوّل شافع، وأنا أوّل مشفّع، وأنا أوّل من تنشقّ عنه الأرض»[٣١]..

---

(٢٧) أى ما سوى الله. (٢٨) الأنبياء: ١٠٧.

(٢٩) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه، ورواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة من حديث بغير زيادة: «ولا فخر»..

(٣٠) قال العلمى فى شرح الجامع الصغير حديث صحيح، وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه والبغوى وابن السكن وأبو نعيم فى الحلية وصححه الحاكم بلفظ: «كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد» وفى الترمذى وغيره عن أبى هريرة أنه قال للنبى ﷺ: متى كنت أو كتبت نبيا؟ قال: كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد. قال الترمذى: حسن صحيح: وصححه الحاكم أيضًا..

(٣١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ولفظه: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أوّل من تنشق الأرض عنه ولا فخر، وأنا أوّل شافع وأول مشفّع ولا فخر، ولواء الحمد بيدى يوم القيامة ولا فخر».

وحديث الشفاعة المشهور الذى أخبرنا به الشيخ الإمام الحافظ بقية المحدثين، شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن الدمياطى بقراءتى عليه أو قراءة عليه وأنا أسمع، قال: أخبرنا الشيخان الإمام فخر القضاة أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن الحباب التميمى وأبو التقى صالح بن شجاع بن سيدهم المدلجى الكنانى، قالا: أخبرنا الشريف أبو المفاخر سعيد بن الحسين بن محمد بن سعيد العباسى المأمونى قال: أخبرنا أبو عبد الله الفزارى قال: أخبرنا عبد الغافر الفارسى قال: أخبرنا أبو أحمد محمد بن عيسى بن عمرويه الجلودى قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه قال: حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى قال: حدثنا أبو الربيع العتكى قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد بن هلال العنزى.

وحدثنا سعيد بن منصور واللفظ له قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد بن طلال العنزى قال:

انطلقنا إلى أنس بن مالك وتشفعنا بثابت، فانتهينا إليه وهو يصلى الضحى، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس ثابتًا معه على سريره، فقال له: يا أبا حمزة، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدِّثهم حديث الشفاعة، قال: حدثنا محمد ﷺ قال:

إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: اشفع لذريتك، فيقول:

لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله.

فيأتون موسى عليه السلام؛ فيقول:

لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى عليه السلام، فيقول:

لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ..

فأوتَى فأقول: أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربِّى، فيؤذن لى، فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلّا أن يلهمنيه الله عز وجل، ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفّع، فأقول: رب، أمّتى أمّتى، فيقال: انطلق، فمن كان فى قلبه مثقال حبّة من بُرَّة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربى، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، أمّتى أمتى، فيقال لى: انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجه منها؛ فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربى فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، أمّتى أمتى، فيقال لى: انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى

ربّى فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقوم: يارب، أمّتى أمّتى، فيقال لى: انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربّى فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، أمّتى أمّتى، فيقال لى: انطلق فمن كان فى قلبه أدنى أدنى من مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل.

هذا حديث أنس الذى أخبرنا به، فخرجنا من عنده، فلما كنّا بظهر الجبان قلنا: لو ملنا إلى الحسن فسلّمنا عليه وهو مستخف فى دار أبى خليفة، قال: فدخلنا عليه فقلنا: يا أبا سعيد، خرجنا من عند أخيك أبى حمزة فلم نسمع بمثل حديث حدثناه فى الشفاعة، فقال: هِيه، فحدثناه الحديث، فقال: هِيه، فقلنا: ما زادنا. قال: قد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جميع[٣٢]، ولقد ترك شيئًا ما أدرى أنسى الشيخ أو كره أن يحدثكم فتتّكلوا، فقلنا له: حدثنا، فضحك وقال:

﴿خُلق الإنسانُ من عجَل﴾[٣٣].

ما ذكرت لكم هذا إلّا وأنا أريد أن أحدثكم:

ثم أرجع إلى ربّى فى الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرّ له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب ائذن لى فيمن قال: لا إله إلّا الله، قال:

ليس ذلك لك. أو قال ليس ذلك إليك، ولكن وعزّتى وكبريائى وعظمتى لأخرجنّ من النار من قال: «لا إله إلّا الله»[٣٤].. قال:

---

(٣٢) أى فى أكمل قوته وتمام ذاكرته ونضرة رجولته.

(٣٣) الأنبياء: ٣٧.

(٣٤) أى ليخرجنه سبحانه مآلًا بعد أن يكون قد استوفى جزاءه عما قدّم من معاصى. اللهم إلّا أن يتفضل سبحانه على البعض لحكمة، وقد روى البخارى ومسلم رضى الله عنهما فى هذا قوله ﷺ فى حديث جامع:

«أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون مِمّ ذاك؟!

(يجمع الله الأوّلين والآخرين فى صعيد واحد، فينظرهم الناظر، ويسمعهم الداعى وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغمّ والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربّكم!!

فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا!

فقال: إن ربى غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيت، نفسى. نفسى. نفسى. اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا فيقولون:

يا نوح: أنت أوّل الرسل إلى الأرض، وقد سماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما بلغنا؟! ألا تشفع لنا إلى ربّك؟

فيقول: إن ربى غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة دعوت بها على قومى، نفسى. نفسى. نفسى!!!

اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟! =

فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك أراه قبل عشرين سنة، وهو يومئذ جميع(٣٥)..

فانظر رحمك الله ما تضمّنه هذا الحديث من فخامة قدره ﷺ، وجلالة أمره، ولِمَن أكابر الرسل والأنبياء لم ينازعوه فى هذه الرتبة التى هى مختصة به وهى الشفاعة العامة فى كل من ضمّه المحشر.

فإن قلت: فما بال آدم أحال على نوح فى حديث، وعلى إبراهيم فى هذا، ودلّ نوح على إبراهيم، وإبراهيم على موسى، وموسى على عيسى، وعيسى على محمد ﷺ، ولم لم تكن الدلالة على محمد ﷺ من الأول؟

فاعلم أنه لو وقعت الدلالة على محمد ﷺ من الأول لم يتبيّن من نفس هذا الحديث أن غيره لا تكون له هذه الرتبة، فأراد الحق سبحانه أن يدلّ كل واحد على من بعده، وكل واحد يقول: لست لها، مسلمًا للرتبة، غير مدّعٍ لها، حتى أتوا عيسى فدّل على رسول الله ﷺ، فقال: أنا لها.

وفى هذا الحديث من الفوائد: أن الإيمان يزيد(٣٦) وينقص.

---

= فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى كذبت ثلاث كذبات: نفسى. نفسى. نفسى!

اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى!

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله وإنى قد قتلت نفسًا لم أؤمر بقتلها: نفسى. نفسى. نفسى.

اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلّمت الناس فى المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبًا - نفسى. نفسى. نفسى!

اذهبوا إلى غيرى. اذهبوا إلى محمد ﷺ.

- وفى رواية: فيأتونى، فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فأنطلق فآتى تحت العرش، فأقع ساجدًا لربّى، ثم يفتح الله علىّ من محامده، وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلى، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأرفع رأسى فأقول: أمتى يارب، أمتى يارب!

فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذى نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة: كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى.

(٣٥) والحديث فى صحيح مسلم (شرح النووى جـ ٣ ص ٢٦٣ ومعنى جميع مجتمع القوة والحفظ).

(٣٦) يقول الإمام البخارى عن الإيمان:

هو قول وفعل، ويزيد وينقص. ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية، نذكر منها: قال الله تعالى:

﴿ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم﴾. ﴿وزدناهم هدى﴾.

﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾.

﴿ويزداد الذين آمنوا إيمانًا﴾.

﴿أيكم زادته هذه إيمانًا، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا﴾.

﴿فاخشوهم فزادهم إيمانًا﴾.

وفيه: أن المعارف لا تتناهى، من قوله: لا أقدر عليه إلا أن يلهمنيه الله عزّ وجل، ويشهد لذلك قوله ﷺ:

«لا أحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك[٣٧]».

ويشهد له قوله سبحانه وتعالى:

﴿ولا يحيطون به علمًا﴾[٣٨].

إلى غير ذلك من الفوائد التي لو تكلمنا عليها لخرجنا عن غرض الكتاب، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول:

جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وما أرسلناك إلّا رحمةً للعالمين﴾[٣٩].

ﷺ، وشرف وكرم، ومجد وعظم، فدعا إلى الله بالبصيرة الواضحة[٤٠]، والبينة الفائقة، وقرب المدارك، وبيّن المسالك، وحثّ على سلوك سبيل الهدى، واجتناب سبيل الردى فما ترك شيئًا يقرّب إلى الله إلّا ودعا إليه، ولا أدبًا يصلح أن يكون العبد به مع الله إلّا وحثّ عليه، ولا شيئًا يشغل العباد عن الله إلّا وحذّر العباد منه، ولا عملاً يقطعهم عن الله إلّا وأخرجهم عنه، لا يألوا نصحًا[٤١] في تخليص العباد من أوحال القطيعة، ومواطن الهلكة، إلى أن ترحل ليل الشرك، وانقضت آثاره، وأضاء نهار الإيمان وأشرقت أنواره، فرفع ﷺ من الدين لواءه، وتمم نظامه، وقرّر فرائضه وأحكامه، وبيّن حلاله وحرامه، وكما بيّن للعباد الأحكام، كذلك فتح لهم باب الأفهام حتى قال الراوي: لقد تركنا رسول الله ﷺ وإن الطير ليتحرك في السماء فنستفيد منه علمًا، فقد قال سبحانه:

﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾[٤٢].

وقال سبحانه:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾[٤٣].

وقال ﷺ:

---

(٣٧) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده.

(٣٨) طه: ١١٠.

(٣٩) الأنبياء: ١٠٧ - ويقول الرسول ﷺ: إنما أنا رحمة مهداة. أي مهداة من الله سبحانه وتعالى إلى الإنسانية.

(٤٠) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾، وإن من أوّل شروط الدعاة أن يكونوا على بصيرة من أمر دعوتهم، ومن أهم ما تتضمنه البصيرة: العلم، العلم بكتاب الله وسنّة رسوله، وسيرته الشريفة.

(٤١) يقول الله تعالى في بيان حرص رسول الله ﷺ على هداية الناس: ﴿فلعلّك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا﴾. ويقول سبحانه:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيزٌ عليه ما عنتم، حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيم﴾

(٤٢) البقرة: ٢٥٦. (٤٣) المائدة: ٣.

«تركتها بيضاء نقيّة»(٤٤).

فجزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أمّته.

ولما أكمل ﷺ البيان لسبيل الرشاد، وأظهر المسالك الموّصلة إلى الله للعباد، توفّاه الله إلى الدار التى هى خيرٌ له وأوْلى، بعد أن خيرِّ فاختار الرفيق الأعلى.

ثم جعل الحق سبحانه الدعاء إلى الله فى أمّته أبدًا، ودائمًا سرمدًا، بما ورثوا منه، وأخذوا عنه، وقد شهد لهم الحق بذلك، وجعلهم أهلًا لما هنالك، قال الله سبحانه:

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾(٤٥).

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: أى على معاينة، يعاين سبيل كل واحد من الأتباع، فيحمله عليها.

ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه اختلاف وصاياه ﷺ لأصحابه على حسب اختلاف سبلهم، فقال لبلال رضى الله عنه:

(أنفق بلالُ، ولا تخش من ذى العرش إقلالًا)(٤٦).

وقال لآخر أراد أن ينخلع عن ماله كلّه:

«امسك عليك مالك، فإنك إن تدعْ ورَثتك أغنياء خير لك من أن تدعَهم عالة يتكففون الناس»(٤٧).

وقال له ﷺ رجل: أوصنى، فقال ﷺ:

«استح من الله كما تستحى من رجل صالح من قومك»(٤٨).

وقال له آخر: أوصنى. فقال: لا تغضب.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: فتح الحق سبحانه بقوله:

«أنا ومن اتبعنى» باب البصائر للأتباع. يريد الشيخ أن قول الله سبحانه:

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾(٤٩).

أى ومن اتّبعنى يدعو إلى الله على بصيرة، على ما يقتضيه اللسان؛ لأنك إذا قلت: زيد يدعو إلى

---

(٤٤) رواه أحمد وابن ماجه بنحوه ونصّ الحديث عن العرباض بن سارية: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون. ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟. قال: «وقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدى إلّا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضّوا عليها بالنواجذ؛ وعليكم بالطاعة وإن كان عبدًا حبشيًّا، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد.

(٤٥) يوسف: ١٠٨.

(٤٦) البزار عن بلاط والطبرانى عن ابن مسعود.

(٤٧) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث كعب بن مالك.

(٤٨) رواه ابن عدى بنحوه بسند ضعيف.

(٤٩) يوسف: ١٠٨.

السلطان على نصيحة هو وأتباعه، أى وأتباعه يُدعون إليه على نصيحة.

إذا ثبت هذا، فالرسول ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة الرسالة الكاملة، والأولياء يدعون على حسب بصائرهم: قطبانية وصديقية وولاية، وقد قال ﷺ.

«العلماء ورثة الأنبياء»(٥٠).

وقال ﷺ.

«إن الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورّثوا العلم»(٥١).

وقال ﷺ.

«علماء أمّتى كأنبياء بنى إسرائيل».

وههنا نكتة: وهو أنه ﷺ لم يقل: علماء أمتى كرسل بنى إسرائيل، فمن الناس من ظنّ أن النبى هو الذى نُبِّئ(٥٢) فى نفسه، والرسول هو الذى أرسل إلى غيره، وليس الأمر كما ظن هذا القائل، ولو كان كذلك فلماذا خص الأنبياء دون الرسل بالذكر فى قوله: علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل، ومما يدّلك على بطلان هذا المذهب قول الله سبحانه:

﴿وما أرسلْنا من قبْلك من رسولٍ ولا نبى﴾(٥٣) الآية.

فدّل على أن حكم الإرسال يعمّهما، وإنما الفرق ما قال بعض أهل العلم: إن النبىّ لا يأتى بشريعة جديدة، إنما يجيء مقررًا لشريعة من كان قبله كيوشع بن نون فإنه إنما جاء مقررًا لشريعة موسى، وآمرًا بالعمل بما فى التوراة، ولم يأت بشرع جديد، والرسول كموسى عليه السلام إذ أتى بشرع جديد وهو ما تضمنته التوراة، فقال ﷺ: علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل، أى يأتون مقررين ومؤكدين وآمرين بما جئت به لا أنهم يأتون بشرع جديد.

إعلام وبيان:

اعلم أن قول رسول الله ﷺ:

«العلماء ورثة الأنبياء».

و«علماء أمّتى كأنبياء بنى إسرائيل».

و«إن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورَّثوا العلم»..

و«ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلّا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»(٥٤).

و«وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»(٥٥).

---

(٥٠، ٥١) رواه أبو داود والترمذى.

(٥٢) كون النبى ما نبئ فى نفسه أو بتعبير المتكلمين: «ما أوحى إليه ما يعمل به ولم يؤمر بتبليغه» والرسول هو ما أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه. هذا ما جرى عليه الغالبية من علماء علم الكلام، وما ذكره المؤلف هنا أدق وأوضح.

(٥٣) الحج: ٥٢ وتمام الآية: ﴿إلا إذا تمنّى ألقى الشيطان فى أمنيّته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾.

(٥٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٥٥) رواه أبو داود والترمذى.

وقوله سبحانه: ﴿شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولوا العلم قائمًا بالقسط﴾(٥٦)

وقال: ﴿والذين أوتوا العلم درجات﴾(٥٧).

و: ﴿بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم﴾(٥٨).

وحيثما وقع العلم فى كتاب الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فإنما المراد به: العلم النافع المخمد للهوى، القامع، الذى تكتنفه الخشية وتكون معه الإنابة قال الله سبحانه:

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾(٥٩).

فلم يجعل علم من لم يخشه من العلماء علما، وقد قال داود عليه السلام: يارب، ما علم من لم يخشك، وما خشية من لم يطع أمرك؟

فشاهد العلم الذى هو مطلوب الله الخشية، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا، والتملق لأربابها، وصرف الهمة إلى اكتسابها، والجمع والادخار، والمباهاة والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء. وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلاّ بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه؟.

ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة تضيء على غيرها وهى تحرق نفسها(٦٠)؛ جعل الله العلم الذى علمه من هذا وصفه حجة عليه؛ وسببا فى تكثير العقوبة لديه. ولا يغرنك أن يكون به انتفاع البادى والحاضر؛ فقد قال ﷺ:

«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»(٦١).

ومثل من يتعلم العلم لا كتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من يرفع العذرة بملعقة من ياقوت؛ فما أشرف الوسيلة؛ وما أخس المتوسل إليه.

ومثل من قطع الأوقات فى طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويجدد الطهارة ولم يصل صلاة واحدة؛ إذ مقصود العلم العمل، كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة، ولقد سأل رجل الحسن البصرى رضى الله عنه عن مسألة فأفتاه فيها، فقال الرجل للحسن: قد خالفك الفقهاء، فزجره الحسن وقال: ويحك، وهل رأيت فقيها؟ إنما الفقيه الذى فقه عن الله أمره ونهيه.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

---

(٥٦) ال عمران ١٨ - والقسط: هو العدل. (٥٨) العنكبوت: ٤٩.

(٥٧) المجادلة: ١١. (٥٩) فاطر: ٢٨.

(٦٠) ولأجل هذا كان الرسول ﷺ يقول فى دعائه - كما رواه الإمام أحمد - اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

(٦١) رواه الطبرانى وصححه السيوطى وفى معناه قوله ﷺ: إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، رواه أحمد والنسائى وابن حبان والطبرانى.

«الفقيه من انفقأ الحجاب عن عينى قلبه وشاهد ملكوت ربه».

وإذ قد عرفت أن الدعاء إلى الله لا يزال أبدا، فاعلم أن الأنوار الظاهرة فى أولياء الله إنما هى من إشراق أنوار النبوة عليهم، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس، وقلوب الأولياء كالأقمار، وإنما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقابلته إياها، فإذا الشمس منيرة نهارًا، ومضيئة أيضا ليلا، لظهور نورها فى القمر الممدود منها، فإذا هى لا غروب لها فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله ﷺ فيهم، فالأولياء آيات الله يتلوها على عباده بإظهاره إياهم واحدا بعد واحد:

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾(٦٢).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول فى قوله عز وجل:

﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾(٦٣).

أى ما نذهب من ولى لله إلا ونأت بخير منه أو مثله.

وقد سئل بعض العارفين عن أولياء المدد، أينقصون فى زمن واحد ؟.

فقال: لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها، ولا أبرزت الأرض نباتها؛ وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم؛ ولا بنقص إمدادهم؛ ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله سبحانه وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم؛ فإذا كان أهل الزمن معْرضين عن الله؛ مؤثرين لما سوى الله؛ لا تنجع فيهم الموعظة، ولا تميلهم إلى الله التذكرة؛ لم يكونوا أهلا لظهور أولياء الله فيهم؛ ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون. وقد قال ﷺ:

«لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»(٦٤).

فإذا كان الله سبحانه وصّانا على لسان رسوله ﷺ أن: لا تؤتوا الحكمة غير أهلها، فمن أولى بهذا الخلق الجميل منا، وقد قال ﷺ:

«إذا رأيت هوًى مطاعا، وشحا متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك»(٦٥).

فسمعوا وصية رسول الله ﷺ، فآثروا الخفاء بل آثر الله لهم ذلك مع أنه لابد أن يكون منهم فى الوقت أئمة ظاهرين قائمين بالحجة، سالكين الحجة، لقول رسول الله ﷺ.

---

(٦٢) الجاثية: ٦.

(٦٣) البقرة: ١٠٦.

(٦٤) إن حديث الصوفية عن بعض آيات القرآن، إنما هو إشارات تمر بوجدانهم لا تنفى من قرب، ولا من بعد المعنى الذى يستمد من الآية بحسب اللغة وأسباب النزول، وموازين المفسرين، ولكن القرآن الكريم نبع فياض، يلهم ويشير ويوجه، وكل إنسان يأخذ منه بحسب صفاء نفسه، ولا عليه، فى ذلك ما دام مؤمنا بالمعنى الذى تقرره الأوضاع الإسلامية الصادقة عاملًا به.

وفى ضوء ما قلناه – وهو الذى يعترف به جميع الصوفية – نرجو من القارئ الكريم أن ينظر إلى ما يأتى من حديث للصوفية فى إشاعات الآية الكريمة.

وهذا المعنى هو الذى يؤخذ من قوله تعالى: ﴿يؤتى الحكمة من يشاء﴾ وهى كلمة قرآنية لا مع فيها ولا تعميم.

(٦٥) أبو داود فى الملاحم، والترمذى فى التفسير، وابن ماجه فى الفتن.

«لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من ناوأهم إلى قيام الساعة»(٦٦).

وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى مخاطباته لكميل بن زياد: اللهم لا تُخْل الأرض من قائم لك بحجتك، أولئك الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله فى عباده وبلاده، آه واشوقاه إلى رؤيتهم. وروى الإمام الربانى محمد بن على الترمذى رضى الله عنه فى كتاب «الختم» (٦٧) له، برفعه إلى ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره»(٦٨).

وروى أيضا برفعه إلى أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:

«خير أمتى أولها وآخرها، وفى وسطها الكدر».

وروى أيضا برفعه إلى عبد الرحمن بن سمرة قال:

– جئت مبشرا من غزوة مؤتة، فلما ذكرت قتل جعفر وزيد وابن رواحة بكى أصحاب رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ما يبكيكم؟ فقالوا: وما لنا لا نبكى وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منا؟ فقال ﷺ: «لا تبكوا، إنما مثل أمتى مثل حديقة قام عليها صاحبها، فاجتلب رواكبها، وهيأ مسالكها، وحلق سعفها، فأطعمت عامًا فوجا ثم عاما فوجا، فلعل آخرها طعما يكون أجودها قنوانا، وأطولها شمراخا، والذى بعثنى بالحق ليجدن ابن مريم من أمتى خلفا من حواريه»(٦٩).

وروى أيضا برفعه إلى سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابى رجالا ونساء يدخلون الجنة بغير حساب»(٧٠).

ثم تلا:

---

(٦٦) متفق عليه.

(٦٧) هو كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذى، وهو من الكتب التى كانت محل عناية كبرى من الشيخ أبى الحسن الشاذلى، ومن الشيخ أبى العباس المرسى وقد نال هذا الكتاب عناية الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، ووصلت عنايته به إلى درجة أنه تحدث عنه غير مرة، وأجاب عن الأسئلة التى وجهها الحكيم الترمذى فى كتابه. وهذا الكتاب طبع فى لبنان.

(٦٨) رواه أحمد والترمذى والطبرانى وأبو يعلى.

(٦٩) القنوان: جمع قنو وهو العذق أى النخلة بحملها، والشمراخ مثله.

ومن خبر غزوة مؤتة ما ذكره ابن حزم فى «جوامع السيرة» من أن المسلمين عندما دخلوا قرية مؤتة جعل المسلمون على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذرى، وعلى الميسرة عباية بن مالك الأنصارى، وقيل: عبادة. واقتتلوا فقتل الأمير الأول: زيد بن حارثة ملاقيا بصدره الرماح، والراية فى يده، فأخذها جعفر بن أبى طالب ونزل عن فرس شقراء.. فقاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بيسراه، فقطعت فاحتضنها، فقتل كذلك، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأخذ عبد الله بن رواحة الراية؛ وتردد عن النزول بعض التردد ثم صمم، فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بنى العجلان وقال: يا معشر المسلمين: اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: أنت. قال: لا. فأخذها خالد بن الوليد. وانحاز بالمسلمين. فأنذر النبى ﷺ بقتل الأمراء المذكورين قبل ورود الخبر فى يوم قتلهم بعينه أهـ

(٧٠) رواه ابن أبى حاتم فى التفسير.

﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾(٧١).

وروى أيضا يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

«فى كل قرن من أمتى سابقون»(٧٢)

واعلم، جعلك الله تعالى من خاصة عباده، وعرفك لطائف وداده، أنه سواء منهم الظاهر والخفى، والصديق والولى، فساد الوقت لا يكدر أنوارهم، ولا يحط مقدارهم؛ لأنهم مع المؤقت لا مع الأوقات، ومن كان مع المؤقت لا يتغير بتغير الوقت شيئا، ومن كان مع الوقت تغير بتغيره وتكدر بتكدره.

وقال الإمام أبو عبد الله الترمذى رضى الله عنه: الناس صنفان صنف منهم عمال الله يعبدونه على البر والتقوى فهم يحتاجون إلى خير الزمان وإقباله ودولة الحق؛ لأن تأييدهم من ذلك، وصنف منهم أهل اليقين فيعبدون الحق على وفاء التوحيد عن كشف الغطاء وقطع الأسباب فهم غير ملتفين إلى إقبال الزمان وإدباره ولا يغيرهم إدباره وهو قول النبى ﷺ:

إن لله عبادا يغذوهم برحمته، يحييهم فى عافية، تمر بهم الفتن كقطع الليل المظلم لا تضرهم.

وقوله ﷺ:

تكون فى أمتى فتن لا ينجو منها إلا من أحياه الله بالعلم.

قال الترمذى: يعنى: بالعلم بالله فيما نرى.

لقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: رجال الليل هم الرجال وإن أولياء هذا الوقت ليؤيدون بشيئين: بالغنى واليقين، فالغنى لكثرة ما عند الناس من الإفلاس، واليقين لكثرة ما عند الناس من الشكوك.

وقال بعض العارفين: إن لله عبادا كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم، فهم كالكواكب، كلما قويت ظلمة الليل قوى إشراقها، وأين نور الكواكب من أنوار قلوب أوليائه، أنوار الكواكب تتكدر وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدى فى الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدى فى الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه تهدى إلى الله تعالى، ولنا فى هذا المعنى:

أمرتقب النجوم من السماء ... نجومُ الأرض أبهرُ فى الضياء
فتلك تنير وقتا ثم تخفى ... وهذى لا تكدر بالخفاء
هدايةُ تلك فى ظُلم الليالى ... هدايةُ هذه كشفُ الغطاء

وقال صوفى يوما بحضرة فقيه: إن لله عبادًا هم فى أوقات المحن والمحن لا تضرهم، فقال ذلك

---

(٧١) الجمعة: ٣، ٤.

(٧٢) الأحاديث السابقة خرجها الترمذى فى كتابه «ختم الأولياء».

الفقيه: هذا مالا أفهمه، أنا أريك مثال ذلك، الملائكة الموكلون بالنار هم فى النار والنار لا تضرهم(٧٣).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: الدنيا كالنار وهى قائلة للمؤمن: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبى.

واعلم أن شأن الولاية والولىّ عظيم، والخطب فيها جسيم ويكفيك فى ذلك ما حدثنا به الشيخ المسند الجليل شهاب الدين أبو المعالى أحمد بن إسحق بن محمد بن المؤيد الابرقوهى رحمه الله، قال: أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن سابور القلانسى الشيرازى بها سنة تسع عشرة وستمائة، قال أخبرنا الإمام أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازى الأدمى قراءة عليه وأنا أسمع فى سنة ثلاث وخمسمائة، قال حدثنا الشيخ الإمام أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد التميمى الحنبلى إملاءً علىّ فى يوم السبت السادس عشر من صفر سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة بأصبهان، قال: أخبرنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن مهدى الفارسى حدثنا أبو عبدالله محمد بن مخلد بن حفص العطار الخطيب الدورى حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة حدثنا خالد بن مخلد عن سليمان بن بلال عن شريك بن أبى نمر عن عطاء عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله عزّ وجل قال: من عادى لى وليا فقد آذننى(٧٤) بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه، ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنّه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابدّ له منه».

وهذا الحديث أخرجه البخارى رضى الله عنه فى صحيحه.

وقد روى هذا الحديث من طريق آخر: فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا وقلبًا وعقلًا ويدًا ومؤيدًا.

فاصغ رحمك الله إلى ما تضمنه هذا الحديث من غزارة قدر الولى وفخامة رتبته، حتى ينزله الحق هذه المنزلة، ويحلّه هذه المرتبة، كقوله ﷻ حاكيًا عن الله:

---

(٧٣) وإن القارئ للقرآن ليعلم ما ذكره القرآن الكريم عن قصة إبراهيم عليه السلام حينما قال قومه:

﴿حرقوه وانصروا آلهتكم﴾

ثم ألقوه فى النار، فكان الأمر الإلهى:

﴿قلنا يانار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم﴾

إن الله سبحانه وتعالى قد حفظه لأنه كان مواليًا لله سبحانه وتعالى فى أفعاله، ومن كان مواليًا لله سبحانه وتعالى، كان متخذًا لله وليًا، ومن اتخذ الله وليًا وسار فى حياته على ما أحبّه الله سبحانه وتعالى، فإن الله يحفظه فتمرّ به الفتن لا تضرّه.

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ ؟!

(٧٤) رواية البخارى «فقد آذنته الحرب» وكلا الروايتين صحيح فى المعنى إن من عادى ولىّ الله آذن الله بالحرب، فآذنه الله بالحرب – أعاذنا الله من ذلك وعافانا.

«من عادى لى وليا فقد آذننى بالحرب».

لأن الولى قد خرج عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن انتصاره لنفسه لانتصار الله، وعن حوله وقوته بصدق التوكل على الله، وقد قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾(٧٥).

وقد قال الله عز وجل: ﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾(٧٦).

وكان ذلك لهم لأنهم جعلوا الله تعالى مكان همومهم، فدفع عنهم الأغيار(٧٧)، وقام لهم بوجود الانتصار.

أخبرنى الشيخ شهاب الدين الأبرقوهى، قال: دخلت على الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه فسمعته يقول: يقول الله عزّ وجل: «عبدى اجعلنى مكان همّك أكفك كلّ همّك، عبدى ماكنت لَكَ فأنت فى محل البعد، وما كنت بى فأنت فى محل القرب واختر لنفسك».

وقد جاء فى الحديث:

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»(٧٨).

فإذا كان الحق سبحانه قد رضى لهم أن يشغلهم ذكره عن مسألته، فكيف لا يرضى لهم أن يشغلهم ذكره والثناء عليه عن الانتصار لنفوسهم؟

ومن عرف الله سدّ عليه باب الانتصار لنفسه(٧٩) إذ العارف قد اقتضت له معرفته أن لا يشهد فعلاً لغير معروفه، فكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعالا فيهم؟ وكيف يدع أولياءه من نصرته وهم قد ألقوا نفوسهم بين يديه مسلمين ومستسلمين لما يريد منهم حكمًا؟ فهُم فى معاقل عزّه تحت سرادقات مجده، يصونهم من كل شىء إلاّ من ذكره، ويقطعهم عن كل شىء إلاّ عن حبّه، ويحتازهم من كل شىء إلاّ من وجود قربه، ألسنتهم بذكره لهجة، وقلوبهم بأنواره بهجة، وطّن لهم وطنًا بين يديه، فقلوبهم جاثمة فى حضرته، وأسرارهم محقّقة بشهود أحديّته.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

ولىّ الله مع الله كولد اللبؤة فى حجرها، أتراها تاركة ولدها لمن أراد اغتياله؟

---

(٧٥) الطلاق: ٣.

(٧٦) الروم: ٤٧.

(٧٧) جمع «غير» بمعنى: سوى، أى كل ما سوى الله.

(٧٨) البخارى فى التاريخ والبزار فى المسند، والبيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب.

(٧٩) قال تعالى، ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

وقال: ﴿والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾.

وما كان الرسول ﷺ يغضب إلاّ لله.

ومما يذكر أن المولى يقتدى برسول الله ﷺ فى الانتصار لله سبحانه وتعالى، وما جوهر حياة الولىّ إلاّ الانتصار لله تعالى: ينتصر لله من نفسه، وينتصر لله فى أسرته، وينتصر لله فى مجتمعه، أنه يقوم بالمبدأ الإسلامى الواجب وهو: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقد جاء فى بعض الأحاديث أنه ﷺ كان فى بعض غزواته وامرأة تطوف على ولدها رضيع، فلما وجدته أحنت عليه وألقمته الثدى، فنظر الصحابة إليها متعجبين، فقال ﷺ:

«لَلّه أرحم بعبده المؤمن من هذه[٨٠] بولدها».

ومن هذه الرحمة برز انتصار الحق لهم ومحاربة من عاداهم؛ إذهم حُمّال أسراره ومعادنُ أنواره.

وقد قال الله سبحانه:

﴿الله ولى الذين آمنوا﴾[٨١].

وقال: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾[٨٢].

غير أن مقابلة الحق سبحانه لمن آذى أوليائه ليس يلزم أن تكون معجلة؛ لقصر مدّة الدنيا عند الله؛ ولأن الله لم يرض الدنيا أهلًا لعقوبة أعدائه كما لم يرضها أهلًا لإثابة أحبائه، وإن كانت معجلّة فقد تكون قساوة فى القلب، أو جمودًا فى العين، أو تعويقًا عن طاعة الله، أو وقوعًا فى ذنب، أو فترة فى الهمّة أو سلب لذاذة خدمته.

وقد كان رجل فى بنى إسرائيل أقبل على الله ثم أعرض عنه فقال: يارب كم أعصيك ولا تعاقبنى، فأوحى الله تعالى إلى نبى ذلك الزمان أن قل لفلان: كم عاقبتك ولا تشعر؟ ألم أسلبك حلاوة ذكرى ولذاذة مناجاتى؟

وفائدة هذا البيان أن لا يحكم لإنسان آذى وليا من أولياء الله بالسلامة، إذا لم تر عليه محنة فى نفسه وماله وولده، فقد تكون محنته أكبر من أن يطلع العباد عليها.

وقوله ﷺ حاكيًا عن الله عز وجل:

«وما تقرّب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم».

فاعلم أن الفرائض التى اقتضاها الحق من عباده على قسمين: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة: الصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبرّ الوالدين، إلى غير ذلك.

والباطنة: العلم بالله، والحبّ له، والتوكّل عليه، والثقة بوعده، والخوف منه، والرجاء فيه، إلى غير ذلك، وهى أيضًا تنقسم قسمين: أفعال وتروك، شىء اقتضى الحق منك أن تفعله، وشىء اقتضى الحق منك أن لا تفعله، وقد جمع ذلك فى آية واحدة، قال الله سبحانه:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى﴾[٨٣]

فهذا أمر طلب الله منك أن تفعله، ثم قال:

﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾[٨٣].

---

(٨٠) رواه البخارى فى الأدب، ومسلم فى التوبة، وأبو داود فى الجنائز وابن ماجه فى الزهد.

(٨١) البقرة: ٢٥٧.

(٨٢) الحج: ٣٨. (٨٣) النحل: ٩٠.

فهذا أمر اقتضى منك أن تتركه.

ثم اعلم رحمك الله أن الله لم يأمر العباد بشيء وجوبًا أو يقتضيه منهم ندبًا إلّا والمصلحة لهم فى فعل ذلك الأمر، ولم يقتض منهم ترك شيء تحريمًا أو كراهةً إلّا والمصلحة لهم فى أمرهم بتركه وجوبًا أو ندبًا ولسنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى: إنه يجب[٨٤] على الله رعاية مصالح عباده. بل إنما نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمرة، فعلها مع عباده على سبيل التفضّل، فليت شعرى إذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده فمن هو الموجب عليه؟

ثم إنّا نظرنا فوجدنا كل مأمور به أو مندوب إليه يستلزم الجمع[٨٥] على الله، وكل منهى عنه أو مكروه يتضمن التفرقة[٨٦] عنه، فإذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه. لكن الطاعات هى أسباب الجمع ووسائله فلذلك أمر بها، والمعصية هى أسباب التفرقة ووسائلها فلذلك نهى عنها.

وأما الفرائض الظاهرة فلا تنفكّ عن فروض باطنة، والفرائض الباطنة شروطها وممدّة[٨٧] لها، وبين الفرائض الظاهرة والباطنة ما بين الظاهر والباطن.

وأفهم ههنا قوله ﷺ:

«نيّة المؤمن خير من عمله»[٨٨].

---

(٨٤) يشير بذلك إلى رأى المعتزلة.

(٨٥) الجمع ما كان من أقبل الحق من إبداء معاف، وإسداء لطف وإحسان (انظر الرسالة القشيرية).
والجمع فى كل معانيه يقصد به القرب من الله سبحانه وتعالى، وآثار القرب، من الله سبحانه وتعالى لا حدود له، ذلك أن كمال الله سبحانه وتعالى لا يتناهى، ويكون معنى القرب من الله سبحانه وتعالى: زيادة كمال، وزيادة الكمال من آثار زيادة الإيمان، وكلما زادت استقامة الإنسان زاد إيمانه، فزاد بذلك كماله، وزاد قربه من الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أكثر من مرة فى كتابه الكريم زيادة الإيمان، وتحدث سبحانه عن أهل اليمين، وعن الأبرار، وعن المقرّبين، والمقرّبون هم قمّة أهل الإيمان، ودونهم الأبرار فى المنزلة، وأهل اليمين ناجون وكلهم فضلاء يتفاوتون فى الفضل بحسب همهم فى طاعة الله والخضوع له.
والتفرقة: هى البعد عن الله سبحانه وتعالى بالمعاصى، وهى بعد عن الكمال، ونقص فى الإيمان.

(٨٦) أى رؤية الكسب من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية.

(٨٧) أى معينة عليها.

(٨٨) رواه القضاعى فى مسند الشهاب، وابن عساكر فى أماليه وقال غريب والطبرانى فى المعجم الكبير: قال الهيثمى: رجاله موثقون إلّا حاتم بن عباد بن دينار لم أر من ذكر له ترجمة، وقال المناوى: له عدة طرق تجبر ضعفه، وإنما كانت نيّة المؤمن خيرًا من عمله.
لأن تخليد الله العبد فى الجنة ليس بعمله، وإنما هو لنيّته؛ لأنه لو كان بعمله كان خلوده فيها بقدر مدة عمله، أو أضعافه، لكنه جازاه بنيّته؛ لأنه كان ناويًا أن يطيع الله أبدًا، فلما اخترمته منيته جوزى بنيته، وكذا الكافر لأنه لو جوزى بعمله لم يستحق التخليد فى النار إلّا بقدر مدة كفر ولأنه نوى الإقامة على كفره أبدًا لو بقى فجوزى بنيته. ذكره بعضهم.
وقال الكرمانى: المراد أن النيّة خير من العمل بلا نيّة؛ إذ لو كان المراد خير من عمل مع نية لزم كون الشيء خيرًا من نفسه مع غيره، أو المراد أن الجزء الذى هو النية خير من الجزء الذى هو العمل؛ لاستحالة دخول الرياء فيها، أو أن النيّة خير من جملة الخيرات الواقعة بعمله، أو أن النية فعل القلب، وفعل الأشرف أشرف، أو لأن القصد من الطاعة تنوير القلب، وتنويره بها أكثر لأنها صفته.
وقال البعض: إنما قال النبى ﷺ ذلك؛ لأن النيّة عبودية القلب والعمل عبودية الجوارح وعمل القلب أبلغ وأنفع، وهو أمير، والجوارح رعية، وعمل الملك أعظم وأبلغ، ولأن العمل يدخل تحت الحصر، والنية لا، إذ المتحقق فى إيمانه عقد نيته على أن يطيع الله ما أحياه، ولو أماته ثم أحياه، وثم ثم، وهذا اعتقاد منبرم مستدام، فيترتب له من الجزاء على نيته ما لا يترتب له على عمله.=

وكذلك الذنوب الباطنة صغائرها وكبائرها أشد من الذنوب الظاهرة، صغيرها من صغيرها وكبيرها من كبيرها، ولما كانت الفرائض اقتضاها الحق من عبده اقتضاءَ إلزامٍ حتّمه عليه لم يدخل العبد فيها إلّا باختيار الله له، فاندفع هوى العبد فيها؛ لأن الله سبحانه وقّت أعدادَها وآمادها وأسبابها، فلما كان كذلك كان قيام العبد فيها مقتَطَعًا عن اختياره لنفسه، راجعًا إلى اختياره الله له، فأوجبت من القرب إلى الله مالم يوجبه غيرها فلذلك قال: «ما تقرّب إليّ المتقرّبون بمثل أداء ما افترضته عليهم».

ثم قال: وما يزال عبدى يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه.

فاعلم أن النوافل هى الزيادة؛ ولذلك سمّى النفل نفلًا، وهو ما ينفله الإمام لمن يراه: زائدًا على نصيبه من الغنيمة، وقال الله سبحانه:

﴿ومن الليل فتهجّد به نافلةً لك﴾(٨٩).

---

= وقال بعضهم: معناه، أن المؤمن كلما عمل خيرًا نوى أن يعمل ما هو خير منه، فليس لنيته فى الخير منتهى، والفاجر كلما عمل شرًّا نوى أن يعمل ما هو شرٌّ منه، فليس لنيته فى الشر منتهى.

وقال بعضهم فى حديث آخر: من نوى حسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات، فالعمل فى هذا الحديث خير من النية، وليس ذلك مرادًا للحديث الأوّل، وإنما تكون النية خيرًا من العمل فى حال دون حال.

وقال بعض شراح مسلم: أفاد هذا الخبر أن الثواب المترتب على الصلاة أكثر للنية وباقية لغيرها من قيام وغيره.

وفى رواية: «نيّة المؤمن أبلغ من عمله» لما تقرر؛ ولأن المؤمن فى عمل ونيته عند فراغه لعمل ثان، ولأن النية بانفرادها توصل إلى مالا يوصله العمل بانفراده، ولأنها هى التى تقلب العمل الصالح فاسدًا، والفاسد صالحًا، مثابًا عليه، ويثاب عليها أضعاف ما يثاب على العمل، ويعاقب عليها أضعاف ما يعاقب عليه، فكانت أبلغ وأنفع.

وقيل: إذا فسدت النية وقعت البليّة.

ومن الناس من تكون نيته وهمّته أجلّ من الدنيا وما عليها، وآخر نيته وهمته من أخس نية وهمة، فالنية تبلغ بصاحبها فى الخير والشر ما لا يبلغه عمله، فأين نية من طلب العلم وعلمه ليصلى الله عليه وملائكته وتستغفر له دواب البرّ وحيتان البحر إلى نية من طلبه لمأكل أو وظيفة كتدريس؟

وسبحان الله كم بين من يريد بعلمه وجه الله والنظر إليه وسماع كلامه وتسليمه عليه فى جنة عدن، وبين من يطلب حظًّا خسيسًا كتدريس أو غيره من العرض الفانى.

قال الحكيم: والنية نهوض القلب إلى الله، وبدؤها خاطر ثم المشيئة، ثم الإرادة ثم النهوض؛ ثم اللحوق إلى الله تعالى مرتحلًا بعقله وعمله وذهنه وهمته وعزمه فمن هنا تتم النية؛ ومنه يخرج إلى الأركان فيظهر على الجوارح فعله، وإذا صحّ العزم خرج الرياء والفخر والخيلاء من جميع أعماله وبلغ مقام الأقوياء؛ وأما غير الكامل فصدره مرج (بستان) من المروج ملتف فيه من النبات ما إذا تخطى فيه لا يكاد يستبين موضع قدمه أين يضعها من كثرة التفاتى: فهذا صدر فيه أشغال النفس وفنونها ووساوس شهواتها فمن أين يأتى النور؟

وإنما يستنير قلب أجرد أزهر فى صدره فسح قد شرحه الله للإسلام فهو على نور من ربه (رطب بذكر الله ورهبته) وصلب بآلاء الله.

والناس فى هذه النية على طبقات: أمّا نيّة العامة فارتحالهم إلى الله بهذا العلم والعقل والذهن والهمة والعزم؛ فمبلغ ارتحالهم المحو، ثم ليس لقلوبهم من القوة ما يرتحلون به فيطيرون لأنه لا ريش لقلوبهم والمحو مسدود لأن القلوب لما مالت إلى النفوس وإطاعتها أفسد طريقها إلى ربها.

وأما العارفون فنيّاتهم صارت كلها نية واحدة لأن القلب ارتحل إلى الله ووجد الطريق إليه فمرّ والقلب أمير والنفس أسير، أهـ فيض القدير ج ٦ ص ٢٩٢.

(٨٩) الإسراء: ٧٩.

أى زيادة لك من فضلنا على ما اقتضته الفرائض لك.

واعلم أن الحق سبحانه لم يوجب شيئًا من الواجبات غالبًا إلاّ وجعل من جنسه نافلةً حتى إذا قام العبد بذلك الواجب وفيه خلل ما جبر بالنافلة التى هى من جنسه؛ ولذلك جاء فى الحديث:

أنه ينظر فى صلاة العبد فإن قام بها كما أمره الله جوزى عليها وأُثبتت له وإن كان فيها خلل أكملت من نافلته»[٩٠] حتى قال أهل العلم: إنما تثبت لك نافلة إذا سلمت لك الفريضة.

ولما علم الله سبحانه أن فى عباده المؤمنين أقوياء وضعفاء كما جاء فى الحديث:

«المؤمن القوى أحبّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف» أو قال: «خير من المؤمن الضعيف» وفى كلٍّ خير[٩١].

ففسَّح الله على الضعفاء بالاكتفاء بالواجبات، وفتح للأقوياء باب نوافل الخيرات، فعباد أنهضهم إلى القيام بالواجبات خوف عقوبته، فقاموا بها تخليصًا لأنفسهم من وجود الهلكة وملاقاة العقوبة، فما قاموا لله شوقًا له ولا طلبًا بربوبيته، فلو قوبلوا بالمحاققة لم يقبل منهم قيامهم هذا، فإنهم لم ينهضوا إلاّ لأجل نفوسهم ولم يطلبوا إلاّ حظوظهم، فقاموا بواجبات الله مجرورين بسلاسل الإيجاب؛ لذلك جاء فى الحديث:

«عجب ربّك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل»[٩٢].

وأما العباد الآخرون فعندهم من غليان الشغف ووجود الحب ما ليس تكفيهم الواجبات، بل قلوبهم متلفتة إلى الله من عوائق هذه الدار، فلو لما يحجر عليهم التنفل بالصلاة فى أوقات النهى لسر مدوا الأوقات بها، ولحمّلوا أنفسهم فوق ما يطيقون.

ومما يدلك على أن الناس انقسموا على هذين القسمين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث:

«بادروا بالأعمال سبعًا، هل ينتظر أحدكم إلاّ غنىً مطغيًا، أو فقرًا منسيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشرٌّ غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر»[٩٣].

فهذا الحديث يقتضى إنهاض الهمم إلى معاملة الله سبحانه وتعالى، والحث على المبادرة إلى طاعته، ومسابقة العوارض والقواطع قبل ورودها، فهذا خطاب الفريق الأوّل فطالبهم الرسول ﷺ بالمبادرة بالأعمال، وجَاءت أحاديث أخر آمرة للعبَاد بالاقتصاد فى الطاعة لئلّا يطيعوا باعث الشغف فيحملون أنفسهم فوق ما يطيقون فيؤدّى ذلك إلى عجزهم عن طاعة الله أو قيامهم فيها بوجود التكلف، فقال ﷺ:

---

(٩٠) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم عن تميم الدارى بنحوه وصححه السيوطى.

(٩١) رواه مسلم ونصّه: المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا، كان كذا، وكذا ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل فإنّ لو تفتح عمل الشيطان.

(٩٢) رواه أحمد والبخارى وأبو داود.

(٩٣) رواه الترمذى والحاكم وصححه.

«أكلفوا من العمل ما تطيقون فو الله لا يملّ الله حتى تملّوا»(٩٤).

وقال: القصد القصد تبلغوا(٩٥).

وقوله: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»(٩٦).

وقوله ﷺ «ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله».

ومثل القائم بالواجبات المكتفى بها والقائم بها وبالنوافل معها كمثل عبدين خارجهما(٩٧) الملك على أربعة دراهم كل يوم فأمّا أحدهما فقام بها ولم يزد، وأما الآخر فقام بها وعمد إلى طرف الفواكه وغرائب التحف فاشتراها وأهداها إلى السيد، فهو لا شك أوْلى بودّ السيد من العبد الآخر.

وقوله: فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به الحديث إلى آخره.

المعنى به: وجود البقاء بعد الفناء فتمحى أوصافك وتطوى بظهور أوصاف المولى فيك.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

إن لله عبادًا محوا أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذواتهم بذواته وحملهم من أسرارهم ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه، وهم الذين غرقوا فى بحر الذات وتيار الصفات، فهى إذًا فناءات ثلاث أن يفنيك عن أفعالك بأفعاله، وعن أوصافك بأوصافه، وعن ذاتك بذاته، ولذا قال قائلهم:

وقوم تاهوا فى أرض بقفر ... وقوم تاهوا فى ميدان حبه

فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا ... وأبقوا بالبقا من قرب قربه

فإذا أفناك عنك أبقاك به، فالفناء دهليز البقاء، ومنه يدخل إليه، فمن صدق فناؤه صدق بقاؤه، ومن كان عمّا سوى الله فناؤه كان بالله بقاؤه، ولذلك قالوا: من كان فى الله تلفه كان على الله خلفه، فالفناء يوجب عذرهم، والبقاء يوجب نصرهم، الفناء يوجب غيبتهم عن كل شىء، والبقاء يحضرهم مع الله فى كل شىء فلا ينقطعون عنه بشىء، الفناء يميتهم، والبقاء يحييهم، ومن دكّت جبال وجوده استمع داعى شهوده، قال الله سبحانه:

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربّى نسفًا، فيذرها قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوَجًا ولا أمتًا، يومئذ يتّبعون الداعِى لا عِوجَ له وخَشعتِ الأصواتُ للرحمن فلا تسمع إلا همسًا﴾(٩٨).

---

(٩٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائى ورواه الشيخان بنحوه.

(٩٥) رواه البخارى.

(٩٦) رواه أحمد عن أنس وصححه.

(٩٧) أطلقهما ليعملا حرّيْن على أن يؤدّيا إليه أربعة دراهم كل يوم.

(٩٨) طه: (١٠٥ - ١٠٨) ومما يذكر هنا أنه قد أشار القوم بالفناء: إلى سقوط الأوصاف المذمومة.

وأشاروا بالبقاء: إلى قيام الأوصاف المحمودة به.

وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين، فمن المعلوم: أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة، فمن فنى عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة.

وصاحب البقاء يقوم عن الله، وصاحب الفناء يقوم الله عنه.

وقوله: وما ترددت فى شيء أنا فاعله أكثر من ترددى فى قبض روح عبدى المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولابدّ له منه.

اعلم أن التردد يجب تأويله ولا يحمل على ظاهره، وإنما التردد فى المخلوقين: إما لتقابل الجواذب، وإمّا لانبهام العواقب وذلك محال فى حق الله سبحانه، وإنما المراد بالتردد ههنا: أن سابق علم الله يقتضى وفاة العبد فى الوقت الذى سبق العلم بتعيينه، وصفة الرأفة تقتضى دفع ذلك لولا ما سبق العلم، وقد أشار الحق سبحانه إلى صفة الرأفة بقوله: يكره الموت وأكره مساءته، وأشار إلى صفة العلم بقوله: ولابدّ له منه.

**انعطاف:**

واعلم رحمك الله بإقباله عليك وجعل أنواره واصلة إليك، أنهما ولايتان: ولىّ يتولّى الله، وولىّ يتولّاه الله، وقد قال الله عزّ وجلّ فى الولاية الأولى:

﴿ومن يتولَّ الله ورسولَه والذين آمنوا فإنّ حزبَ الله هم الغالبون﴾(٩٩).

وقال فى الولاية الثانية:

﴿وهو يتولّى الصالحين﴾(١٠٠).

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: من أجلِّ مواهب الله الرضا بمواقع القضاء، والصبر عند نزول البلاء، والتوكل على الله عند الشدائد، والرجوع إليه عند النوائب.

فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة، ومتابعة السنّة، والاقتداء بالأئمة، فقد صحّت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين، ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون.

ومن خرجت له من خزائن المنن على بساط المحبة، فقد تمت ولاية الله له بقوله:

﴿وهو يتولّى الصالحين﴾.

ففرق بين الولايتين: فعبد يتولّى الله، وعبد يتولاه الله فهما ولايتان: صغرى وكبرى، فولايتك لله خرجت من المجاهدة، وولايتك لرسوله خرجت من متابعتك لسنته، وولايتك للمؤمنين خرجت من الاقتداء بالأئمة، فافهم ذلك من قوله:

﴿ومن يتولَّ الله ورسوله... الآية﴾.

واعلم رحمك الله بورود عواطفه(١٠١)، وفهمك لطائف عوارفه: أن الصلاح الذى فى قوله عزّ وجلّ:

﴿وهو يتولّى الصالحين﴾.

---

(٩٩) المائدة: ٥٦.

(١٠٠) الأعراف: ١٩٦.

(١٠١) أى: بمنحه وعطاياه.

ليس مرادًا به الصلاح الذى يقصده أهل الطريق عند تفصيل المراتب، فيقولون فلان صالح وشهيد وولىّ، بل الصلاح هنا المراد به: الذين صلَحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خليقته، ألم تسمع قول الله سبحانه حاكيًا عن يوسف عليه السلام.

﴿توفّنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين﴾.

أراد بالصالحين هنا المرسلين من آبائه، لأن الله أهّلهم لنبوّته ورسالته، فكانوا لها أهلاً.

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الإيمان، وولاية الإيقان، فولاية الإيمان قول الله سبحانه: ﴿الله وَلىُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾(١٠٢).

وفى هذه الآية فوائد:

**الفائدة الأولى:** اختصاص اسم الله بالذكر فى هذا الموطن دون ما سواه من الأسماء فقال الله سبحانه:

﴿الله وَلىُّ الذين آمنوا﴾.

ولم يقل: الرحمن، ولا القهار، ولا غير ذلك من الأسماء التى تتضمن الأوصاف؛ لأنه أراد أن يعرّفك شمول ولايته لعباده المؤمنين من الاسم الجامع لجميع الأسماء فلو ذكر اسمًا من أسماء الأوصاف لكانت الولاية من حيثية ذلك الاسم.

**الفائدة الثانية:** ربط الولاية بالإيمان: ليعرفك عزازة قدر الإيمان وعلوّ منصبه حتى كان سببًا لثبوت ولاية الله للعبد، ولا يفهم من هذه الآية اختصاص الولاية بمن وقع منه الإيمان قبل نزول هذا الخطاب لإتيانه بصيغة الماضى، بل المراد أن من قام به الإيمان وجبت ولاية الله له أى وقت كان ذلك الإيمان، وقد تساق الأفعال على صيغة خاصة وليس المراد خصوص تلك الصيغة، كما تقول قد أفلح من آمن وخاب من كفر، ألا ترى أن المراد بالأوّل: قد أفلح من كان منه إيمان، وقد خاب من كان منه كفر من غير تعرّض لزمن معين.

**الفائدة الثالثة:** دلّ سبحانه بقوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور على وسع رحمته وسبوغ نعمته: إذ لما قال:

﴿الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

علم أنهم قد يدخلون فى الظلمات، ولكن الله لولايته إياهم يتولّى إخراجهم، كما قال فى الآية الأخرى:

﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلّا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾.

فساق ذلك مساق المدح للمؤمنين، كما ساق قوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور، مساق

---

(١٠٢) البقرة: ٢٥٧.

البشارة لهم، ولم يقل: والذين لا يفعلون الفاحشة: إذ لو قال ذلك لم يدخل فيه إلّا أهل الاعتناء الأكبر.

وكذلك قوله:

﴿وإذا ما غضِبوا هم يغفِرون﴾(١٠٣).

وكذلك قوله: ﴿والكاظمين الغيظ﴾(١٠٤).

فمدحهم بالمغفرة بعد الغضب، ولم يقل: والذين لا يغضبون، فيصفهم بفقدان الغضب أصلًا؛ إذ البشرية التى هم متصفون بها لا تقتضى ذلك.

**الفائدة الرابعة:** إعلام الحق سبحانه فى هذه الآية المؤمنين ببشارة عظمى تتضمنها ولايته؛ لأنها تضمنت كل خير من خيور(١٠٥) الدنيا والآخرة، من: نور وعلم، وفتح وشهود، ومغفرة ويقين، وتأييد ووجود مزيد، وحور وقصور، وأنهار وثمار، ورؤية الله، ورضى عن الله، ومن الله، وما بين ذلك من الحشر مع المتقين، وأخذ الكتاب باليمين، وثقل ميزان الحسنات، والتثبيت على الصراط وما سوى ذلك من المنح والمواهب التى تضمنتها ولاية الله لعباده المؤمنين، فهى البشارة التى تضمنت كل بشارة.

واعلم أن ولاية الله تتضمن النفع والدفع.

أما النفع فمن قوله:

﴿فلوْلا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها﴾(١٠٦).

ومن قوله: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوْا بأسنا﴾(١٠٧).

وفى هذه وصف الكافرين، فمفهومه أن الإيمان ينفع المؤمنين ولو عند رؤية البأس، وكذلك قوله: ﴿يوم يأتى بعضُ آيات ربِّك لا ينفَع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنتْ من قبْلُ أو كسَبت فى إيمانها خيرًا﴾(١٠٨).

فمفهومه إذا كانت مؤمنةً من قبل نفعها(١٠٩) بإيمانها.

وأما الدفع فمن قوله:

﴿إنّ الله يدافعُ عن الذين آمنوا﴾(١١٠).

وتتضمن النصر لقوله: ﴿وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين﴾(١١١).

وتتضمن النجاة لقوله:

﴿وكذلك نُنجى المؤمنين﴾(١١٢).

---

(١٠٣) الشورى: ٣٧.
(١٠٤) آل عمران: ١٣٤.
(١٠٥) جمع خير.
(١٠٦) يونس: ٩٨.
(١٠٧) غافر: ٨٥.
(١٠٨) الأنعام: ١٥٨.
(١٠٩) أى انتفاعها بإيمانها.
(١١٠) الحج: ٣٨.
(١١١) الروم: ٤٧.
(١١٢) الأنبياء: ٨٨.

**الفائدة الخامسة:** قوله:

﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

أى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ومن ظلمات البدعة إلى نور السنّة.

ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة.

ومن ظلمات الحظوظ إلى نور الحقوق.

ومن ظلمات طلب الدنيا إلى نور طلب الآخرة.

ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة.

ومن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف.

ومن ظلمات الهوى إلى نور التقوى.

ومن ظلمات الدعوى إلى إشراق نور التبرى من الحول والقوى.

ومن ظلمات الكون إلى شهود المكوّن.

ومن ظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض.

إلى غير ذلك مما لا يحصره العدّ مما يخرجهم منه ويخرجهم إليه.

الولاية الثانية: ولاية الإيقان، وهى تتضمن الإيمان والتوكّل، وقد قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسْبُه﴾(١١٣).

ولا يكون التوكل إلّا مع اليقين، ولا يكون يقين وتوكّل إلّا مع إيمان؛ لأن اليقين عبارة عن استقرار العلم بالله فى القلب، مأخوذ من يقن الماء فى الجبل إذا سكن فيه، فكل يقين إيمان، وليس كل إيمان يقينا.

والفرق بينهما أن الإيمان قد تكون معه الغفلة، واليقين لا تجامعه الغفلة.

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الصادقين، وولاية الصديقين.

فولاية الصادقين بإخلاص العمل لله، والقيام بالوفاء مع الله، طلبًا للجزاء من الله.

وولاية الصديقين بالفناء عما سوى الله، والبقاء فى كل شىء بالله. وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: فى بعض كتب الله المنزلة على أنبيائه، «قال الله: «من أطاعنى فى كل شىء أطعته فى كل شىء»!.

فقال الشيخ أبو الحسن: (من أطاعنى فى كل شىء بهجرانه لكل شىء) أطعته فى كل شىء بأن أتجلّى له فى كل شىء حتى يرانى أقرب إليه من كل شىء، هذه طريق أولى، وهى طريق السالكين،

---

(١١٣) الطلاق: ٣.

وطريق كبرى: من أطاعنى فى كل شىء بإقباله على كل شىء لحسن إرادة مولاه فى كل شىء، أطعته فى كل شىء، بأن أتجلّى له فى كل شىء، حتى يرانى كأنّى عين كل شىء.

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أنهما وليان: وليٌّ يفنى عن كل شىء فلا يشهد مع الله شيئًا، ووليٌّ يبقى فى كل شىء فيشهد الله فى كل شىء، وهذا أتم؛ لأن الله سبحانه لم يظهر المملكة إلّا كى يشهد فيها، فالكائنات مرايا الصفات، فمن غاب عن الكون غاب عن شهود الحق فيه، فما نصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها: تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها. ولنا فى هذا المعنى.

ما أُبينت لك العوالم إلّا ... لتراها بعين من لا يراها
فارْقَ عنها رقىَّ من ليس يرضى ... حالةً دون أن يرى مولاها

فالناظر للكائنات غير شاهد للحق فيها غافل، والفانى عنها عبد بسطوات الشهود ذاهل، والشاهد للحق فيها عبد مخصص كامل. وإنما ترفع الهمة عن الكون من حيث كونيته لا من حيث ظهور الحق فيه، وذلك: لعدم نفوذهم إليه فى كل شىء لا لعدم ظهوره فى كل شىء، فإنه ظاهر فى كل شىء حتى إنه ظاهر فيما به احتجب فلا حجاب. ولنا فى هذا المعنى:

أرى الكلَّ محتاجًا وأنت لك الغنى ... ومثلى من يخْطى ومثلك من يعفو
وأنت الذى تُبْدى الودادَ تكرّمًا ... ومثلُك من يرعى ومثلى من يَجْفو
وما طاب عيشٌ لم تكن فيه واصلًا ... ولم يصفُ - لا والله - أنّى له يصفو
عزمت على أن أتركَ الكونَ كلَّه ... وأقْفُو سبيل الحب والمجْتَبَى يقفو
شهودُك يجلو والحجاب لأنه ... إذا حقق التحقيق صار هو الكشف
وما أحسن الأحباب فى كل حالة ... فلله ما يُبْدو ولله ما يخْفو
وإن الأولى لم يشهدوك بمشهد ... قلوبُهم عن نيل سرّ الهوى غُلف[١١٤]
وأنت الذى أظهرت ثم ظهرت فى ... جميع المبادئ مثل ما شهد العرف
ظهرت لكل الكون فالكونُ مظهر ... وفيه له أيضًا كما جاءت الصحف
فأيّ فؤاد عن ودادك ينثنى ... وأيةُ عين بعد قربك لى تغفو
وأيةُ نفس لم يُلْهها هواك ... على حبّكم طرًّا نفوسُ الورى وقف

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية دليل وبرهان، وولاية شهود وعيان. ولاية الدليل والبرهان لأهل الاعتبار، وولاية الشهود والعيان لأهل الاستبصار. فلأهل الولاية الأولى قوله سبحانه: ﴿سنُريهم آياتِنا فى الآفاق وفى أنفسِهم حتى يتبيّن لهم أنه الحقُّ﴾[١١٥].

ولأهل الولاية الثانية:

﴿قلِ الله ثم ذَرْهم فى خوْضِهم يلعبونَ﴾[١١٦]

---

(١١٤) أى مغطاة عن الحق.

(١١٥) فصلت: ٥٣.

(١١٦) الأنعام: ٩١.

وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان؛ لأن أهل الشهود والعيان قدّسوا الحق فى ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، وكيف يحتاج إلى الدليل من نصب الدليل؟ وكيف يكون معروفًا به وهو المعرّف له؟

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشىء من سبق وجودُه وجودَ كل شىء؟

وقال مريدٌ لشيخه: يا أستاذ، أين الله؟ فقال: أسحقك الله، أتطلب مع العين «أين». وأنشد بعض العارفين:

لقد ظهرْت فلا تخفَى على أحد ... إلّا على أكمه لا يبصر القمرا
ثم استترْت عن الأبصار يا صمد ... فكيف يُعْرف من بالعزّة استترا

فما احتجب الحق عن العباد إلّا بعظيم ظهوره، ولا منع الأبصار أن تشهده إلّا قهارية نوره، فعظيم القرب هو الذى غيّب عنك شهود القرب.

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

حقيقة القرب أن تغيب فى القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشمّ رائحة المسك فلا يزال يدنو منها، وكلما دنا منها تزايد ريحها، فلما دخل البيت الذى هو فيه انقطعت رائحته عنه.

وأنشد بعض العارفين:

كم ذا تموه بالشّعبين والعلَمِ ... والأمر أوضح من نار على علَمِ
أراك تسأل عن نجد وأنت بها ... وعن تهامة هذا فعل متّهَمِ

ووجدت بخط شيخنا أبى العباس رضى الله عنه:

أعندك من ليلى حديث محرر ... بإيراده يحيى الرميمُ وينشرُ
فعهدى بها العهدُ القديم وإننى ... على كل حال فى هواها مقصر
وقد كان منها الطّيف قدمًا يزورنى ... ولما يزر ما باله يتعذّر
فهل بخلت حتى بطيف خيالها ... أم اعتلّ حتى لا يصحُّ التصوّر
ومن وجه ليلى طلعةُ الشمس تستضى ... وفى الشمس أبصار الورى تتحير
وما احتجبت إلّا برفع حجابها ... ومن عجبى أن الظهور تستر

واعلم أن الأدلة إنما نصبت لمن يطلب الحق لا لمن يشهده: فإن الشاهد غنىّ بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبيّة ثم تعود فى نهايتها ضرورية.

وإذا كان من الكائنات ما هو غنىّ بوضوحه عن إقامة دليل، فالمكوِّن أولى بغناه عن الدليل منها.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

إنّا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان وإنّا لا نرى أحدًا

من الخلق، هل فى الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان ولابدّ فكالهباء فى الهواء إن فتّشته لم تجده شيئًا.

ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل إليه، أو هل له من الوضوح ما ليس له حتى تكون هى المظهرة له.

وإن كانت الكائنات موصلة إليه، فليس ذلك لها من حيث ذاتها، ولكن هو الذى ولّاها رتبة التوصيل فوصّلت، فما وصّل إليه غير إلاهيته، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب وهى لمن وقف عندها ولم ينفذ إلى قدرته عين الحجاب، وقد قال الراوى: أصبح رسول الله ﷺ فى أثر سحابة كانت من الليل، فقال:

أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال ربكم: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بى، فأمّا من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب، وأمّا من قال مطرنا بنجم كذا أو بنوْء كذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب.

رواه مالك فى موطّئه(١١٧)، فلابدّ من الأسباب وجودًا ولابدّ من الغيبة عنها شهودًا.

وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذى أظهرها أو معرفةً له وهو الذى عرفها.

فإن قلت: فقد جاء فى الحديث: من عرف نفسه عرف ربه فهذا يدل على أن معرفة النفس موصلة إلى معرفة الله وهى كوْن من الأكوان ففيه إثبات توصيل الكائنات إليه.

فاعلم أنى سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: فى هذا الحديث تأويلان:

أحدهما: أى من عرف نفسه بذلّها وعجزها وفقرها عرف الله بعزّه وقدرته وغناه فتكون معرفة النفس أوّلاً ثم معرفة الله من بعد.

والتأويل الثانى: من عرف نفسه عرف ربّه، أى من عرف نفسه فقد دلّ ذلك منه على أنه عرف الله من قبل، فالأوّل حال السالكين والثانى حال المجذوبين.

واعلم بسط الله لك بساط منّته وجعلك من أهل حضرته أن الله سبحانه إذا تولّى وليًّا صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، حتىّ لقد قال بعض العارفين: إذا كان الحق سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كيلا يسترق السمع منها، فقلب المؤمن أوْلى بذلك لقول الله سبحانه فيما يحكيه عنه رسول الله ﷺ: «لم تسعنى أرضى ولا سمائى ويسعنى قلب عبدى المؤمن»(١١٨).

فانظر رحمك الله هذا الأمر الأكبر الذى أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلاً.

ولقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنّك بنور المؤمن المطيع.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: لو كشف عن حقيقة الولىّ لَعُبدَ لأن

---

(١١٧) ورواه البخارى ومسلم.

(١١٨) لعل أصل هذا الحديث ما رواه الطبرانى من حديث أبى عنبة الخولانى من قول النبى ﷺ: إن فى آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين.

أوصافه من أوصافى ونعوته من نعوتى، ولقد أخبرنى بعض المريدين قال: صلّيت خلف شيخى صلاةً فشهدت ما أبهر عقلى، وذلك أنى شهدت بدن الشيخ والأنوار قد ملأته، وانبثّت الأنوار من وجوده حتى أننى لم أستطيع النظر إليه، فلو كشف الحق عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر فى مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمسُ والقمر من أنوارهم؟ الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب؛ ولذلك قال قائلهم:

إن شمس النهار تغرب بالليـ ـل وشمس القلوب ليست تغيب

ونور الشمس يُشْهد به الآثار ونور اليقين يُشْهد به المؤثر.

ولنا فى هذا المعنى:

هذه الشمس قابلتنا بنور وَلَشَمْسُ اليقين أبهر نورًا

فرأينا بهذه النور لكنّا بهاتيك قد رأينا المنيرا

لكن الحق سبحانه يوفى أعيان الكائنات حقّها، ويعطيها قسطها، فيقدر لكن كوْن رتبته، ويوفيه دولته، فلذلك ستر سرّ الخصوصية فى وجود البشرية، ولابدّ للشمس من سحاب وللحسناء من نقاب، وهل يكون الكنز إلاّ مدفونًا والسرّ إلاّ مصونًا؟ وضع ذلك سبحانه ليكون سرّ الولاية غيبًا، فيكون المؤمن به مؤمنًا به مؤمنًا بالغيب، وأيضًا أجلّ ولايته أن يُظهره فى دار لابقاء لها فأرخى عليه ذيل الستر حتى إذا كانت الدار الآخرة التى رضيها أهلاً لظهوره واقترابه ووجود كشف حجابه، كذلك يكشف الحجاب هنالك عن سرّ الولاية ويجلّ مقداره ويرفع مناره(١١٩).

---

(١١٩) حين بدأ الرسول ﷺ الجهر بدعوته، بعد نحو ثلاث سنوات من الإسرار بها: فإنه صلوات الله وسلامه عليه لم يبدأ بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو، وتحدّى العرب بصدقه!

ومن قبل ذلك حين فاجأه الملك فى الغار، ونزل الوحى لم يبدأ الملك أو لم يبدأ الوحى بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالأمر بأن يقرأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه باسم ربه: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾.

ومضى القرن الأوّل كله، ولم يحاول إنسان قط أن يتحدث حديثًا عابرًا أو مستفيضًا عن إثبات وجود الله - تعالى - ومضى أكثر القرن الثانى والمسألة - فيما يتعلق بوجود الله - لا توضع موضع البحث.

ذلك أن وجود الله: إنما هو أمر بدهى لا ينبغى أن يتحدث فيه المؤمنون نفيًا أو إثباتًا، ولا سلبًا أو إيجابًا!

إن وجود الله من القضايا المسلّمة التى لا توضع فى الأوساط الدينية موضع البحث لأنها فطرية:

وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص فى إيمانه دخل.

وفى دينه انحراف، فما خفى الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبته البشر، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ومن المعروف أن الدين الإسلامى لم يجىء لإثبات وجود الله، وإنما جاء لتوحيد الله.

وإذا تصفحت القرآن أو التوراة - حتى على وضعها الحالى - أو الإنجيل - حتى فى وضعه الراهن: فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت فى أى سفر منها مكانة تجعلها هدفًا من الأهداف الدينية، أو احتلّت مكانًا يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية.

والقرآن الكريم: يتحدث عن بداهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة يقول سبحانه:

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ إنهم يقولون: إن الخالق هو الله. مع أنهم مشركون أو منحرفون بوجه من الوجوه فى إيمانهم بالله تعالى، وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله، وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد فى الله، أو لتصحيح طريق الوحيد.

أما الآيات الكثيرة التى يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود، فليست من ذلك فى قليل ولا فى كثير، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبرياءه وهيمنته الكاملة على العالم، ما عظم من أمره ودقّ منه، لا تفوت هيمنته صغيرة ولا كبيرة، ولا يخرج عن =

فاعلم رحمك الله أن من أراد الله به أن يكون داعيًا إليه من أوليائه، فلابّد من إظهاره للعباد إذ

---

= سلطانه ما دقّ وما جلّ.

وقد أتت على هذا الوضع لتقود الإنسان إلى إسلام وجهه لله إسلامًا كاملًا بحيث لا يصدر ولا يرد إلّا باسمه سبحانه، ولا يأتى ما يأتى أو يدع ما يدع إلا فى سبيله تعالى.

ومضى القرن الأوّل على ذلك، ومضى القرن الثانى - أو أكثره - على الفطرة ثم كانت الفلسفة اليونانية.

والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية؛ لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحى، وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحى فى عالم ما وراء الطبيعة، أى فى عالم العقيدة إنما هى فكرة وثنية، أى أنها فكرة لا حق لها فى الوجود؛ لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله، يبيّنه على لسان رسله، وكل تدخّل من الإنسان فى هذا العالم، إنما هو تدخل فيما ليس للإنسان التدخل فيه؛ لأنه اقتحام لساحة محرمة مقدسة لا ينبغى أن يدخلها الإنسان إلّا دخول الساجد الخاشع الخاضع المسلم لما جاء به الوحى الإلهى.

إن الفلسفة اليونانية فى عالم العقيدة: فلسفة وثنية: إنها وثنية حتى حين تثبت وجود الله، ولا يخرجها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية، إنها وثنية بالمبدأ الذى قامت عليه، وهو مبدأ تأليه العقل البشرى. ويستوى بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو أنكرته.

وهى حينما تثبت وجود الله عقليًا ليس فى ذاك كبير فائدة، ولا يبرر ذلك وجودها، ولا قيمة لما تثبته ، وإثباتها والعدم سواء؛ ذلك أن العقل الذى أثبت هو العقل الذى يمكنه أن ينكر، وهو العقل الذى ينكر بالفعل.

ولا لزوم إذن للطنطنة والتصفيق الذى نحيى به كل عبقرية فكرية فى الشرق أو فى الغرب تحاول فكريًا أن تثبت وجود الله.

إننا لا نقيم عقيدتنا على فكر بشرى مهما كان هذا الفكر عبقريًا.

ويجب على المؤمن ألّا يقيم وزنًا - أى وزن - لأىّ نتاج فكرى فى عالم ما وراء الطبيعة سواء خالف معتقده أو وافقه، إنه فى معتقده يدين لله وحده، وكفى بالله مصدرًا، وكفى بالله هاديًا، وكفى بالله مرشدًا ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم، ومن يعتصم بالله فهو حسبه.

إن كل ما عدا الهدى الإلهى فى عالم الدين إنما هو وثنية وضلال.

كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية، وقد أرادت أن تجد لجامًا يعصمها من الخطأ فاخترعت فنًّا وثنيًّا آخر، هو فنّ المنطق، فما أجدى ولا أغنى، ولا تقدّم بالفكر الوثنى فى عالم الصواب شروى نقير!

وبقيت هذه الفلسفة الوثنية - عبر القرون - على ما هى عليه، فيها كلّ سمات الوثنية من ضلال وخرافات.

ولقد كانت الأمة اليونانية معذورة بعض العذر، فما كان فى ربوعها، دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة، وما كان مثلها فى ذلك إلّا كمثل العصر الجاهلى فى الجزيرة العربية: فلجأت إلى العقل وألهته، وأخذت تثبت به وتنكر فضلّت وأضلّت.

جاءت الديانة النصرانية مصححة للوضع، فعزلت فكرة الألوهية من تدنيس الوثنية، وسمت بالله جلّ جلاله عن أن تضع وجوده موضع البحث ثم تسلّلت إليها - كمكروب خبيث - وثنية اليونان، فجعلت من وجود الله - مجرّد وجود الله بابًا ضخمًا من أبواب البحث أو من أبواب اللاهوت الكنسى. ونزلت بذلك الفكر الدينية المقدسة عن الله إلى مستوى الجوّ الوثنى البشرى!

وجاء الإسلام تطهيرًا كاملًا للعقيدة، وتزكية تامّة للإيمان، وأعلن بمجرد التسمية: «الإسلام» الحرب على التدخل البشرى فى دين الله ورسالته، فما جاء الإسلام إلّا للاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى، إنه الاسترسال مع الله على ما يرضيه، وهل للإنسان غير هذا بالنسبة لله؟ وهل للمؤمن أن يتصرّف تصرفًا آخر؟ وهل إذا تصرف تصرفا آخر سمّى مؤمنًا؟

إن الاسترسال مع الله على ما يحب هو الإسلام، وهو الدين لا دين غيره، يقول الله تعالى:

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

ويقول سبحانه:

﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقبلَ منه﴾.

وإن كل من لا يستسلم لله فى وحيه استسلامًا مطلقًا، فإنه يبتغى - فى قليل أو فى كثير حسب انحرافه - غير الإسلام دينًا.

ولقد كان الإسلام توجيهًا ، وكان مبادئ!

ومن توجيه الإسلام: أن وجود الله لا ينبغى أن يوضع موضع البحث، وكلّ من وضعه موضع البحث: فإنه بذلك يعدل عن توجيه الله تعالى إلى توجيه بشرى. إنه يبتغى غير الإسلام موجّهًا!

ولقد ابتغى المسلمون الأول الإسلام توجيهًا كما ابتغوه مبادئ، وسار الأمر على ذلك إلى أن تسللت الفلسفة اليونانية - =

لا يكون الدعاء إلى الله إلّا كذلك، ثم لابدّ أن يكسوه الحق سبحانه كسوتين: الجلالة، والبهاء.

---

= كمكروب خبيث - إلى الجوّ الإسلامي، تسللت فى عهد المأمون، وتولّى كِبْر هذا التسلل المأمون، وشجّعه على ذلك معتزلة عصره، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من النفور، وحقّ لهم ذلك. فما كان منطق الدين ولا منطق الفطرة السليمة يقضى بأن تكون راية العصمة، راية الدين الإلهى مرفوعة ترفرف على ربوع الأمة الإسلامية فى محيط العقيدة: فنميل بهذه الراية قليلا أو كثيرا لنرفع بجوارها راية أرسطو أو راية أبيقور.

ورفع المأمون راية الانحراف الوثنية بجوار راية الهداية المعصومة وعارض المؤمنون واحتجّوا وبيّنوا أن الوثنية ولو وافقت الدين فهى وثنية.

ولكن النهج الوثنى أخذ يقوى شيئًا فشيئًا، ثم طلب التصريح بالإقامة واستوطن! ومعاذ الله أن تكون عقائد الإسلام الكبرى - الإيمان بالله وبالرسالة وبالبعث - قد تلوّثت بالوثنية!

كلّا، وإنما الذى تلوّث بالوثنية - وإلى حدٍّ كبير - إنما هو النهج والنزعة والاتجاه فى البحث ومنهج البحث وليس ذلك بالأمر الهيّن أو الذى لا يؤبه له. كلّا! - فذلك له خطورته فى جانب قوّة الإيمان وضعفه.

وفرق بين أن تأخذ قضايا الوحى مأخذ المستسلم المسترسل معها على ما تريد، وأن تأخذها محكّمًا فيها عقلك مؤوّلًا لها أو عادلًا بها إلى اتجاه خاص، أو شارحًا لها على نزعة معينة.

وبتعبير آخر: فرق بين أن تصدر عن الوحى متفهمًا له بعقلك، وبين أن تصدر عن عقلك متفهمًا للوحى.

ولعلّ بعض الناس لا يرى فرقًا فى التعبيرين، ولكن الفرق كبير إذا نظرنا إلى الوضع الإنسانى: فهو إمّا أن ينطلق عن الوحى قائدًا العقل إلى الخضوع له، وإمّا أن ينطلق عن العقل محاولًا تأويل الوحى بما يوافق النتائج التى وصل إليها العقل. والأوّل طريق المؤمنين المسلمين، والثانى طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين. والنهج الوثنى - نهج إثبات وجود الله عقليًا - هو الذى أتاح الانحراف الكامل أى إنكار وجود الله، فمادام النهج الوثنى قد أعطى حقّ الوجود، فإن الوثنية - كمنهج - تأتى بالوثنية كنتائج!

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث. هو الذى هيّأ لذوى الفِطَر المنحرفة أن يلحدوا فى دين الله، وأن يكفروا به سبحانه.. ! هذه نتيجة!

أمّا النتيجة الثانية فإنها ضعف الإيمان، وإذا كنت تضع الوجود الإلهى - مجرّد الوجود - موضع بحث، فمعنى ذلك أنك وضعته موضع شك وريبة، ولو لم يكن كذلك لما وضع موضع البحث.

وإذا كان الوجود الإلهى - مجرّد الوجود - موضع شك وريبة فماذا بقى من أمور الدين لا يوضع موضع شك وريبة؟!

إن الإيمان فى هذه الأوضاع الوثنية لا يتأتّى له إلّا أن يخبو شيئًا فشيئًا حتى يصبح كلا إيمان!

وهذا هو ما حدث لبعض الأفراد فى الأمة الإسلامية!

لقد وصل إيمانهم إلى درجة يشبه أن يكون معدومًا، وما ذلك إلّا لتغلغل النهجى الوثنى فى بحث قضايا الدين ومبادئه.

لقد أصبحت قضايا الدين - كلّ قضاياه - موضع بحث وهل يتأتى أن تبقى قضية من قضايا الدين فى مجال اليقين بعد أن وضع وجود الله - مجرّد وجوده سبحانه - موضع البحث؟ نستغفرك اللّهم ونتوب إليك! ونعود فنقول: إن الدين فى نفسه محفوظ بحفظ الله لكتابه العزيز.

﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

ولكن الذى نشكو منه إنما هو: النهج، أو المنهج أو النزعة، أو الاتجاه فى البحث.

إنّ الذى نشكو منه إنما هو:

منهج البحث الوثنى: وإن شئت قلت: إنما هو منهج البحث اليونانى. سئل أحد العارفين عن الدليل على الله فقال: الله! فقيل له: فما العقل؟ فقال: العقل عاجز لا يدلّ إلّا على عاجز مثله!

أما الإمام الكبير العارف بالله ابن عطاء الله السكندرى الذى جمع بين رئاسة الشريعة ورئاسة الحقيقة فإنه يقول:

إلهى: كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصّل إليك؟

«كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى أظهر كل شىء»؟!

=

أمّا الجلالة فليعظمه العباد فيقفوا على حدود الأدب معه، ويضع له فى قلوب العباد هيبة يبصره بها؛ ليكون إذا أمر ونهى مسموعًا أمره ونهيه، وجعل هذه الهيبة فى قلوب العباد من تمكين الحق له ليعينه على القيام له بالنصرة، قال الله سبحانه: ﴿الذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوْا عن المنكر ولله عاقبةُ الأمور﴾(١٢٠).

وهى من إظهار إعزاز الحق لعباده المؤمنين، قال الله سبحانه:

﴿ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين﴾(١٢١).

وهذه الهيبة التى جعلها الحق فى قلوب العباد لأوليائه سرت إليهم لا نبساط جاه المتبوع عليهم، ألم تسمع قوله ﷺ: نصرت بالرعب مسيرة شهر(١٢٢)؟ ألبسهم الحق ملابس هيبته، وأظهر عليهم إجلال عظمته، كلما نزلوا إلى أرض العبودية رفعهم إلى سماء الخصوصية، فهم الملوك وإن لم تخفق عليهم البنود(١٢٣) والأعزّاء وإن لم تسر أمامهم الجنود.

ولله در القائل فى مالك بن أنس رضى الله عنه:

يأبى الجوابَ فما يُراجَع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعزّ سلطان التقى ... فهو المطاع وليس ذا سلطان

ومن ملّكه الله أمر نفسه وهواه فقد آتاه الله الملك، قال الله تعالى:

﴿قل اللّهم مالكَ المُلْكِ تُؤتى المُلْكَ من تشاءُ﴾(١٢٤).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

قال ملك من الملوك لبعض العارفين تَمنَّ علىّ.

فقال له ذلك العارف: إلىّ تقول ولى عبدان قد ملكتُهما وملكاكَ وقهرتُهما وقهراكَ وهما الشهوة

---

«كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر بكل شىء»؟!

«كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر فى كل شىء»؟!

«كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الظاهر قبل وجود كل شىء»؟!

«كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أظهر من كل شىء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الواحد الذى ليس معه شىء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أقرب إليك من كل شىء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شىء ولولاه ما كان وجود شىء»؟

«شتّان بين من يستدّل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه. وإلاّ فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل إليه»؟!

(١٢٠) الحج: ٤١.

(١٢١) المنافقون: ٨.

(١٢٢) رواه البخارى ومسلم والنسائى.

(١٢٣) أى ترفرف الرايات.

(١٢٤) آل عمران: ٢٦ - وما ذكره المؤلف رضى الله عنه هو بعض ما تشير إليه الآية الكريمة وهى عامة، فهى تشمل الملك فى الآفاق - كل الآفاق - وفى الأنفس، أنه سبحانه المالك للسماوات والأرض وما بين السماوات والأرض، وهو سبحانه المملِّك ما يشاء لمن يشاء، ومع تمليكه ما يشاء لمن يشاء فهو المالك الدائم لكل ما خلق ويخلق.

والحرص؟ فأنت عبد عبدى. فكيف أتمنّى على عبد عبدى؟!.

الكسوة الثانية التى يكسوها الحق سبحانه لأوليائه إذا أظهرهم: كسوة البهاء، وذلك ليحليهم فى قلوب عباده فينظرون إليهم بعين الألفة والمحبّة، فيكون ذلك باعثًا لهم على الانقياد إليهم، أفلا ترى كيف قال الله سبحانه فى شأن موسى عليه السلام:

﴿وألقيْتُ عليك محبةً منى﴾(١٢٥).

وقال سبحانه: ﴿إنّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات سيجعلُ لهم الرحمنُ وُدًّا﴾(١٢٦).

فحلاهم بحلية الهيبة ليحبّهم العباد فيجرّهم حبُّهم إلى حبِّ الله، والحبُّ فى الله يوجب المحّبة من الله، لقوله ﷺ حاكيًا عن الله: (وجبت محبتى للمتحابّين فى)(١٢٧).

وهى مراتب أربع: الحب لله، والحب فى الله، والحب بالله، والحب من الله. الحب لله ابتداءً، والحب من الله انتهاءً، والحب فى الله وبالله واسطة بينهما.

الحب لله هو أن تؤثره ولا تؤثر عليه سواه(١٢٨)، والحب فى الله أن تحبَّ فيه من والاه، والحبُّ بالله أن يحبَّ العبد من أحبَّه وما أحبَّه منقطعًا عن نفسه وهواه، والحبُّ من الله هو أن يأخذك من كل شىء فلا تحب إلاّ إيّاه.

وعلامة الحب لله دوام ذكره مع الحضور، وعلامة الحب فى الله أن تحبّ من لم يحسن إليك بدنيا من أهل الطاعة والخير، وعلامة الحب بالله أن يكون باعث الحظ بنور الله مقهورًا، وعلامة الحب من الله أن يجذبك إليه فيجعل ما سواه عنك مستورًا.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

من أحب الله وأحب لله فقد تمت ولايته بالحب.

والمحبُّ على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته: فإذًا من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت، ويعلم ذلك من قوله تعالى:

﴿قل يـأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياءُ لله مِن دونِ الناس فتمنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين﴾(١٢٩).

فإذًا الولىّ على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه.

وقد أحبّ الله من لا محبوب له سواه، وأحبّ له من لا يحب شيئًا لهواه، وأحب لقاءه من ذاق أنس مولاه.

---

(١٢٥) طه: ٣٩.

(١٢٦) مريم: ٩٦.

(١٢٧) قال النووى: حديث صحيح رواه مالك فى الموطأ.

(١٢٨) يقول الله سبحانه:

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ فى سبيله فتربّصوا حتى يأتى الله بأمره﴾.

(١٢٩) الجمعة: ٦.

ويتمحَّض لك الحب له فى عشرة فاعتبرها فيما وراءها:

فى الرسول ﷺ[١٣٠]، والصديق، والفاروق والصحابة، والتابعين، والأولياء والعلماء الهداة إلى الله تعالى، والشهداء، والصالحين، والمؤمنين.

فإذا افترق الأمر بعد الإيمان إلى عشرة أشياء: إلى السنّة والبدعة والهداية والضلالة، والطاعة والمعصية، والعدل والجور، والحق والباطل، وميزت وأحببت وأبغضت فأحب له، وأبغض له، ولست تبالى بأيّهما كنت، وقد يجتمع لك الوصفان فى شخص واحد، ويجب عليك القيام بحقّهما جميعًا، فإذًا قد بان لك الحب لله فى العشرة الأول، فانظر هل ترى للهوى هناك أثرًا، فكذلك فاعتبر حبّ من حضر من إخوانك الصادقين، والمشايخ الصالحين، والعلماء المهتدين، وسائر من حضر ومن لم يحضر ممن غاب عنك أو مات، فإن وجدت قلبك لا متعلّق له بمن حضر كما لا متعلق له بمن غاب عنك أو مات فقد خلص الحب من الهوى وثبت الحب لله، وإن وجدت شيئًا يتعلّق به فيمن تحب أو فيما تحب فارجع إلى العلم وأتقن النظر فى الأقسام الخمسة من الواجب والمندوب إليه والمكروه والمحظور والمباح.

واعلم أن قول الشيخ: «من ثبتت ولايته لا يكره الموت» هذا ميزان أعطاه للمريدين ليزنوا به نفوسهم إذا ادعّى فيهم أو أدّعوا ولاية الله، فإن من شأن النفوس وجود الدعاوى والتوثب إلى المراتب العالية من غير أن يسلك السبيل الموصلة إليها؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[١٣١].

وقال هنا: ﴿فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾[١٣٢].

وقال الرسول ﷺ لحارثة: «لكل شىء حقيقة فما حقيقة إيمانك»؟ لما قال لحارثة: «كيف أصبحت»؟ فقال: أصبحت مؤمنا حقا، ولا يحب الموت من فيه البقايا، ولا من هو مصر على شىء من الخطايا.

وجعل الله تمنى الموت شاهدًا للولى بولايته، وعدم تمنيه شاهدا للغوى بغوايته.

وقل سبحانه: ﴿وأقيموا الوزْن بالقسط﴾[١٣٣].

والموت ميزان على الأفعال والأحوال، كما هو ميزان فى دائرة الرتب أما الرتب فكما تقدم، وأما الأفعال والأحوال فإذا التبس عليك أمر أنت فيه لا تدرى: هل رضا الله فى تركه أو فعله أو

---

(١٣٠) يقول رسول الله ﷺ:
«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». رواه مسلم.
ولقد قال سيدنا عمر مرة لرسول الله ﷺ:
والله لأنت يا رسول الله أحب إلىّ من كل شىء إلّا نفسى. فقال: لا. والذى نفسى بيده. حتى أكون أحبّ إليك من نفسك. فقال عمر: فأنت الآن والله أحبّ إلىّ من نفسى. فقال: الآن يا عمر!

(١٣١) النمل: ٦٤.

(١٣٢) الجمعة: ٦.

(١٣٣) الرحمن: ٩.

حالة أنت بها لا تدرى: هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى، فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال فكل حالة وعمل يثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهى حق، وكل حالة وعمل هزمها الموت فهى باطل إذ الموت حق والحق يهزم الباطل وبدمغه لقول الله عز وجل:

﴿بل نَقذِفُ بالحق على الباطل فيدمغُه فإذا هو زاهقٌ﴾(١٣٤).

﴿قل إنّ ربّى يقذف بالحق علامُ الغيوب﴾(١٣٥).

﴿وقل جاء الحقُّ وَزَهَقَ الباطلُ إنّ الباطل كان زهوقًا﴾(١٣٦).

وما كنت فيه قائمًا بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق، والموت حق، والحق لا يهزم الحق.

وقد تجاريت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم فى أنه ينبغى إخلاص النيّة فيه، وأنه لا يشتغل به إلّا لله، فقلت له: الذى يقرأ العلم لله هو الذى إذا قلت له غدًا تموت لم يضع الكتاب من يده.

وربما غرَّ الغافل من طلبة العلم قول من قال: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله»، وليس فى قول هذا القائل ما يستروح به من طلب العلم للرئاسة والمنافسة، وإنما أخبر هذا القائل عن أمر مُنَّ به عليه، وفتنة سلّمه الله منها، لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره وذلك بمثابة من به مرض مزمن فى المِعَى أعياه علاجه وضاق منه خلقه فأخذ خنجرًا وضرب به مراق بطنه ليقتل نفسه فصادف ذلك المعى فقطعه فخرج الداء منه، فهذا لا يستصوب العقلاءُ فعله وإن نجحت عاقبته، وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم للتهلكة.

«ليس المغر بمحمود وإن سلما».

وقول الشيخ رضى الله عنه: «وقد أحب الله من لا محبوب له سواه» فهو كلام يستدعى معرفة المحبة وما هى؟

اعلم أن المحبة هى من أجل مقامات اليقين، حتى اختلف أهل الله أيهما أتم: مقام المحبة أو مقام الرضا؟

وإن كان الذى نقول به: إن مقام الرضا أتم؛ لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب، وقوى عليه وجود الشغف، فأدّاه ذلك إلى طلب شهود ما لا يليق بمقامه، ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب، والراضى عن الله راضى عنه أشهده أم حجبه؟ والمحب يحب دوام الوصلة، والراضى عن الله راض عنه وصله أو قطعه إذ ليس هو مع ما يريد لنفسه، بل إنما هو مع ما يريد الله له، المحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضى لا طلب له.

ولنا فى هذا المعنى:

وكنت قديمًا أطلب الوصل منهم ... فلما أتانى العلم وارتفع الجهل

تيقنت أن العبد لا طلبا له ... فإن قربوا فضل وإن بعدوا عدل

---

(١٣٤) الأنبياء: ١٨.

(١٣٥) سبأ: ٤٨.

(١٣٦) الإسراء: ٨١.

وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

المحبة آخذه من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل متحصنًا بمعرفته، والروح مأخوذة فى حضرته، والسرّ مغمورًا فى مشاهدته، والعبد يستزيد فيزاد، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة، ويمسّ أبكار الحقائق وثيبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا:

أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون.

قال له القائل: قد علمت الحب.

فما شراب الحب؟

وما كأس الحب؟

ومن الساقى؟

وما الذوق؟

وما الشراب؟

وما الرى؟

وما السكر؟

وما الصحو؟

قال: الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب.

والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب.

والساقى هو المتولّى الأكبر للمخصوصين من أوليائه والصالحين من عباده وهو الله العالم بالمقادير ومصالح أحبائه، فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظى منه بشيء نَفَسًا أو نفَسَين، ثم أرخِىَ عليه الحجاب فهو الذائق المشتاق.

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقًّا.

ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلك هو الرِّىّ.

وربما غاب عن المحسوس والمعقول. فلا يدرى ما يقال، ولا مايقول: فذاك هو السكر.

وقد تدور عليهم الكئوس وتختلف لديهم الحالات، فيردون إلى الذكر والطاعات، ولا يحجبون عن الصفات، ومع تزاحم المقدورات فذلك وقت صحوهم، واتساع نظرهم، ومزيد علمهم.

فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يهتدون فى ليلهم.

وبشموس المعارف يستضيئون فى نهارهم.

﴿أولئك حزب الله ألا إنّ حزبَ الله هم المفلحون﴾(١٣٧).

---

(١٣٧) المجادلة: ٢٢.

قال الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبى الحسن رضى الله عنهما:

الزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدنيا، كلما ملت إلى شهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت.

وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة، وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت أو تيقظت شربت، حتى يكورك وصحوك به، وحتى تغيب بجماله، عن المحبة، وعن الشراب والشرب والكأس بما يبدو لك من نور جماله وقدس كمال جلاله.

ولعلِّى أُحَدِّث مَنْ لا يعرف المحبة ولا الشراب ولا الشرب ولا الكأس ولا السكر ولا الصحو.

قال له القائل: أجل، وكم من غريق فى شىء لا يعرفُ بغرقه، فَعرِّفنى ونَبهنى عما أجهل أو لما مُنَّ به علىَّ وأنا عنه غافل.

قلت لك: نعم المحبة آخذة من الله تعالى قلب من أحب بما يكشف له من نور جماله وقدس كمال جلاله.

وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار والأسماء بالأسماء والنعوت بالنعوت والأفعال بالأفعال ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عزّ وجل.

والشرب سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب حتى يسكر، ويكون الشرب بالتدريب بعد التذويب والتهذيب فيسقى كل على قدره.

فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله سبحانه يتولّى ذلك منه له.

ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين.

فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئًا، فما ظنّك بعد بالذوق، وبعد بالشرب، وبعد بالرى، وبعد بالسكر بالمشروب.

ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتّى كما أن السكر أيضًا كذلك.

والكأس مغرفة الحق يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافى لمن شاء من عباده المخصوصين من خلقه، فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، وتارة يشهدها معنوية، وتارة يشهدها علمية، فالصورة حظّ الأبدان والأنفس، والمعنوية حظ القلوب والعقول، والعلمية حظ الأرواح والأسرار.

فياله من شراب ما أعذبه، فطوبَى لمن شرب منه، وداوم عليه، ولم يقطع عنه.

نسأل الله من فضله: ﴿ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾(١٣٨).

وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة، وقدْ يسقون من كئوس كثيرة، وقد يسقى الواحد بكأس وكئوس، وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الأكؤس، وقد يختلف الشرب من

---

(١٣٨) الجمعة: ٤.

كأس واحدة وإن شرب منه الجم الغفير من الأحبة(١٣٩).

---

(١٣٩) لقد حلق بنا المؤلف فى موضوع المحبة فى صورة أسمى ما تكون العواطف، والواقع أن المحبة «صراط الأولياء» على حدّ تعبير الشبلى.

إنها صراطهم الدائم، حين يصلون إليها تلهج بها ألسنتهم، وتمتلئ بها قلوبهم إلى آخر نفس من حياتهم.

والناس فى العواطف درجات: فمنهم سلطان المحبين، ومنهم سلطان العاشقين.

ومهما جمح بالإنسان أمر الحب، ومهما كان سلطانه فإنه فى الأوضاع الشرعية التى التزمها الصوفية له شروط، وله علامات لن يتأتى أن يكون الحب بدونها. يقول الله تعالى فى حديث قدسى:

«من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحبّ إلى مما افترضه عليه. ومايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبُّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنّه».

وفى هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه فى قوّة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه.. وأولياؤه هم:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ومن عاداهم فإنما يعادى: المؤمن التقى.

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى:

«آذنته بالحرب».

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبّه، وأوّل خطوة فى هذا الطريق:

«أداء ما افترضه عليك»

ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأوّل: شرط القرب منه سبحانه وهو أداء الفرائض.

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب، بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله.

لقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله - وكذبوا كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»!

لابدّ من أداء الفرائض، وإلّا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل ومع أداء الفرائض - فى وجوب القرب - الإكثار من النوافل. فإذا أكثر من النوافل أحبّه الله:

«وما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبُّه»!

ويترتب على حبّ الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذى ذكره الله سبحانه وتعالى فى الحديث القدسى.

ويربط أسلافنا - رضوان الله عليهم - ربطًا محكمًا بين محبّة الله سبحانه واتّباع رسول الله ﷺ. متناسقين فى ذلك مع توجيه الله سبحانه:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾

وهذا الربط معناه: الربط بين محبة الله تعالى والعمل.

ومقدمات محبة الله تعالى - فى توفيقه - هى العمل، ومن نتائج محبة الله سبحانه: العمل.

يقول الإمام أبو سعيد الخراز:

وبلغنا عن الحسن البصرى رضى الله عنه أن ناسًا قالوا - على عهد رسول الله ﷺ:

«يا رسول الله، إنّا نحب ربّنا حبًّا شديدًا» فجعل الله تعالى لمحبته علمًا وأنزل عزّ وجل:

﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعونى يحببكم الله﴾

فمن صدق المحبة اتباع رسول الله ﷺ فى هديه وزهده وأخلاقه والتأسّى به فى الأمور كلها، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها، فإن الله عزّ وجلّ جعل محمدًا عليه الصلاة والسلام علمًا ودليلًا وحجةً على أمّته. ومن صدق المحبة لله تعالى إيثار محبة الله عز وجل فى جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك.

ويقول:

فعلامة المحب الموافقة للمحبوب، والتجارى مع طرقاته فى كل الأمور، والتقرب إليه بكل حيلة، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه. =

**انعطاف:**

ثم اعلم فتح الله بصيرتك لشهود أنواره، ووالى عليك ورود معارفه وأسراره، أن من أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة.

---

= أما عن صلة المحبة بالإيمان فإن الإمام الغزالى يقول:

وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة إذ قال أبو زين العقيلى: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وفى حديث آخر:

«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»

وفى رواية: «ومن نفسه».

كيف وقد قال الله تعالى:

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها. ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾.

وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار... اهـ.

ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله يحيى بن معاذ: إلهى إنّى مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغيرًا أخذتنى إليك. وسربلتنى بمعرفتك، وأمكنتنى من لطفك، ونقلتنى فى الأحوال وقلبتنى فى الأعمال: سترًا وتوبةً، وزهدًا وشوقًا، ورضًا وحبًا، تسقينى من حياضك، وتهلنى فى رياضك، ملازمًا لأمرك، ومشغوفًا بقولك... ولما طرّ شاربى، ولاح طائرى، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرًا، وقد اعتدت هذا منك صغيرًا، فلى ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأنى محبٌ، وكل محبٌ بحبيبه شغوف، وعن غير حبيبه مصروف.

وبعد:

فإن ثمرة محبة الله تعالى هى ما قاله سبحانه عن أوليائه:

﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾.

وهى أيضًا أن يجد حلاوة الإيمان، يقول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان:

١ - أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢ - وأن يحب المرء لا يحبه إلّا لله.

٣ - وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار.

ولقد سمع الناس كثيرًا عن عاطفة الحب الإلهى عند السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها، وسمعوا عن حبّ الإمام ابن الفارض، والإمام البرعى. ونحب أن نضع بجوار هؤلاء شخصية نعتبرها نموذجًا للصوفية فى صلتهم بالله سبحانه: إنها شخصية الإمام الشبلى!

وإذا كان الجم الغفير من الشعب الإسلامى قد أخذ فكرة عن الحب عند بعض الصوفية، فإنه لم تتح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن الحب عند الشبلى ولكن المؤرخين لحياة أبى بكر الشبلى يتحدثون عن حبّه العميق وهيامه المستمر. ومنهم مثلاً صاحب الحلية الذى يقول عنه:

ومنهم المجتذب الولهان، والمستلب السكران، الوارد العطشان، اجتذب عن الكدور والأغيار، واستلب إلى الحضور والأنوار، وسقى بالدنان، وارتمن ممتلأ ريان: أبو بكر الشهير بالشبلى.

وسيرى القارئ أن أسباب المحبة عنده، وأن ثمارها، وأن تصريفها وكل ما يحيط بها منغمس فى جو من الاتباع لرسول الله ﷺ، وشعار من التزام الشريعة الغرّاء، وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والاقتداء برسول الله ﷺ أساسًا لكل تصرفاتهم.

أما عن أسباب المحبة: فإنها فيما يرى الشبلى نتيجة «الهمة»!

والهمة عند الصوفية هى التسمير والجدّ فى العبادة.

ويقول الشبلى:

«إن من ملّت همّته ضعفت محبّته»

سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: يكون الولى مشحونا بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة، حتى إذا أعطى العبارة كان كالإذن له من الله فى الكلام، ويجب أن تفهم أن من أذن له فى التعبير بِهَيْتْ(١٤٠) فى مسامع الخلق عبارته، وحليت لديهم إشارته.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر.

ثم اعلم أن مبنى أمر الولى على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتناء بشهوده، قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾(١٤١).

وقال سبحانه: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾(١٤٢).

---

= فمع الهمّة إذن صعودًا وهبوطًا تكون المحبة صعودًا وهبوطًا.

ولقد جلس عنده جمع من المريدين فوجدهم غفلة لا يذكرون، فقال فى حزن:

كفى حزنًا بالوالـه الصبّ أن يرى ... منـازل من يهـوى معـطلة قفـرا

وسئل مرة عن أعجب شىء فقال:

«من عرف الله ثم عصاه»!

ولا يسرّ المحب شىء أكثر من موافقة من يحب.

قال أبو القاسم عبدالله بن على البصرى: قال رجل للشبلى:

إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟ قال:

«إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته» وأنشد:

أسـرُّ بمهـلكـى فـيـه لأنّى ... أسـرُّ بـمـا يسـرّ الإلـه جـدا

ولـو سئلت عـظامى عـن بـلاهـا ... لأنكـرت البـلى وسمعت جحـدا

ولـو أخـرجت من سقمى لنـادى ... لهيـب الـشـوق بى يـسـألـه ردّا

ولابدّ للمحب من الأدب الكامل فى القول فضلاً عن السلوك ويقول الشبلى:

«الانبساط مع الحق بالقول ترك أدب».

والمحبة رقّ للمحبوب، وإذا سألت عن الفرق بين رقّ العبودية ورقّ المحبة فإن أحمد بن محمد بن عمران قال: سمعت الشبلى - وسئل - فقيل: ما الفرق بين رق العبودية ورق المحبة؟ فقال: كم بين عبد إذا أعتق صار حرًّا، وعبد كلما أعتق ازداد رقًّا.

ثم أنشأ يقول:

لتحشـرنّ عـظامى بعـد إذ بليت ... يـوم الحسـاب وفيهـا حبكم عـلق

وقد يسأل إنسان عن تعريف المحبة عند الشبلى: ما هى؟

والجواب: إنه يقول:

«المحبة اتباع أوامر المحبوب، وتجنّب نواهيه، ومع ذلك فيجب الصدق والإخلاص، وكتمان الحال مع بذل الجهد فى المجاهدة، ثم بعد ذلك لا توصل للمحبوب إلاّ بفضله ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾.

(١٤٠) بهيت: أى حسنت وراقت.

(١٤١) الطلاق: ٣.

(١٤٢) الزمر: ٣٦.

وقال سبحانه: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾[١٤٣].

وقال سبحانه: ﴿أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾[١٤٤]؟ فمبنى أمرهم فى بداياتهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكتم الأحوال، تحقيقا لفنائهم، وتثبيتا لزهدهم، وعملا على سلامة قلوبهم، وحبا فى إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين، وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء، فهنالك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، وإن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه، وظهور الولى ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء كما قدمناه، فلما لم يكن الظهور مطلبهم، وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم، تولاهم فى ذلك بتأييده وواردات مزيده لقوله ﷺ: يا عبد الرحمن بن سمرة لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت[١٤٥] إليها.

ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهورا ولا خفاء، بل إرادته وقف على اختيار سيده له.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبدا لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه.

ولنختم هذه المقدمة بذكر كرامات أولياء الله جوازا ووقوعا وأقسام ذلك على سبيل الاختصار، وكون هذا قد سبق إلى الكلام عليه بالإيعاب غيرنا قد أقام لنا الاعتذار، لكنا ننبه على نكت[١٤٦] مفيدة لأولى الألباب، ويكشف عن وجه حسنها ما أسدل عليه من نقاب، ليكون ذلك مهيئا لك لقبول ما نورده عن هذه الطائفة من الكرامات، وما نسنده إليهم من بواهر الآيات إن شاء الله تعالى.

---

(١٤٣) العلق: ١٤.

(١٤٤) فصلت: ٥٣.

(١٤٥) رواه مسلم.

(١٤٦) أى مسائل.